fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تلامس

تأليف
لنا عبد الرحمن

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

fb/mashro3pdf

الطبعة الأولى
1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-434-0

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

fb/mashro3pdf

المحتويات

المجنونة 7

سينما 47

أحلام وكوابيس 59

طفولة 65

شغف 73

ست البنات 85

أمي - أم سمير 95

كابوس 101

هوى بري 113

أبيض وأسود 121

بنات المنتحرة 129

الداون تاون 133

جنون تموز 143

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

المجنونة

«لا يمكنك إيجاد الطمأنينة بتجنب الحياة»

فيرجينا وولف

من فيلم الساعات

أكثر ما كان يخفيني، أن أصير مثلها.

أن تكون نهايتي مثل نهايتها.

كوابيسي عنها لا تنتهي، ثم الأشباح... الأشباح التي تأتي ليلاً لتهز سريري وتمضي، تتركني أحدق في فراغ غرفة ملبدة بالضباب ولون رمادي كثيف يشبه البخار المتصاعد من قدر هائل الحجم، وخيوط لا مرئية تتمازج ألوانها بين البترولي،الأسود، والكحلي القاتم، ألوان تشعرني بالجفاف الشديد في حلقي، كما لو أنها وجدت في هذا الكون لإفزاعي فقط.

استيقظ في الليل مرعوبة بسبب كابوس يتكرر.

أشاهد نفسي نزيلة مستشفى المجانين، «دار العجزة» أو «المأوى»، أكثر الأسماء التي تسبب لي الهلع.

دراستي «علم النفس» لم تحررني من هذه «الفوبيا» المرضية، ظننت أني سأتخلص من كوابيسي، ومن ذكرياتي، سيصير ترددي على «المأوى» أمراً عادياً، أقوم به كلما طلب مني القيام ببحث ما، لكن الأمور لم تسر على هذا الشكل، وظللت أصاب بالرعب كلما صعدت إلى السيارة وقلت للسائق:

«المدينة الرياضية، نزلة مستشفى العجزة».

fb/mashro3pdf

منذ عامين صرت أذهب لزيارتها وحدي.

لم يبق سوى أنا وهي، تدريجيا ضاقت الدائرة علي وعليها بعد موتهما.

جدتي كانت تقول أنني أشبهها، أحدق في وجهها بخوف وصمت كلما حكت عن جمالها حين كانت صبية، تنظر في وجهي قائلة:

«إيه شو بك، عمتك هيدي كانت قمر بصباها، كانت بتشبه مريم فخر الدين، أنت طالعة بتشبهيها، مش المتل بيقول: «خذوا البنات من صدور العمات».

بماذا أشبهها أيضاً؟

هل ورثت عنها ذات الشيطان؟

الشيطان الذي يلهب لي جسدي كلما أيقظني ليلاً.

أبلع ريقي وأصاب أكثر بالخوف، هل ستكون نهايتي مثلها، «مجنونة» لا يزورها أحد؟

هي كانت أجمل مني بكثير، أنفي الطويل الذي ورثته عن أمي، وبشرتي المائلة إلى الأصفر لا يقارنان بلونها القرنفلي، بعينيها العسليتين، وملامحها الدقيقة.

لو أنني تزوجت، لو لم انجرف وراء شغف علاقتي مع «محمدو» وأفسخ خطوبتي من كامل، ربما كنت الآن أكثر هدوءاً وأقل وحدة.

هي أيضاً لم تكن مجنونة منذ البداية، ولم تكن وحيدة، كل الأشياء تصاعدت رويداً رويداً حتى وصلت لهذه النتيجة.

لا أعرف كيف بدأت تمرض، وكيف جنت.

لا أحد من العائلة أو الأقارب يتفق على بداية مرضها، وكيف

fb/mashro3pdf

صارت مجنونة.

حادثة مرضها يتكتم عليها الجميع، وكنت أسمعها بصيغ مختلفة من كل شخص في العائلة.

* * *

أبعد ما أذكره أنني منذ بداية تشكل وعيي الأول وأنا أذهب لزيارتها مع جدتي في «مأوى العجزة»، كلما عاودتها نوبة عصبية ونقلتها جدتي برفقة أبي إلى المستشفى لتظل فيه شهراً أو أكثر قبل عودتها إلى البيت.

«مأوى العجزة» الذي يتكون من عدة طوابق، وينقسم ما بين مصح للأمراض العقلية للنساء والرجال، وبين نزل لإيواء المسنين. إنه المكان الذي وضعت قدميّ الصغيرتين فيه أول مرة وأنا طفلة في الخامسة.

ما أن نصعد أنا وجدتي إلى الطابق الثاني المخصص للنساء اللواتي يعانين من مرض عقلي أو خلل نفسي، حتى تبدأ رفيقات عمتي المريضات بمحاولة مداعبتي، إحداهن كان اسمها «أسماء»، كانت تبكي كلما رأتني، تحكي عمتي لجدتي حكايتها على مسمعي، كيف حرمها زوجها من أبنائها الثلاثة ووضعها في المستشفى رغم أنها طبيعية تماماً، لكن أسماء لم تكن تبدو عادية أبدا. أما «سعاد» فقد توقف نموها الذهني عند التاسعة من عمرها. الأجمل بينهن «هلا»، كانت تعطيني الشوكولا والبنبون، عمتي تقول بأنها «تقع بالنقطة» حينها لم أكن أفهم مجاز العبارة بأنها تقصد نوعاً من الصرع ينتابها فجأة بلا أي مقدمات، لكن «رويدا» التي تنحدر من عائلة كبيرة في «بعلبك» كانت مدمنة على «الكوكايين». حكت عمتي لي بأنها بدأت بتعاطي الحشيشة منذ السادسة عشر من عمرها، وبعد زواجها من ابن عمها الذي يتاجر بالحشيش

fb/mashro3pdf

أيضاً أدمنت على الكوكايين بعدما صار يعقد صفقات مع تجار يقومون بتخزين الكوكايين عنده قبل نقله براً إلى بلدان عربية مجاورة، خاصة أيام الحرب عندما كان لبنان من الدول المصدرة للمخدرات.

هؤلاء كن رفيقات عمتي في مرضها، رسخن في ذاكرتي، رغم عبوري من الطفولة إلى المراهقة والشباب، إلا أنني ما زالت أذكر ملامح وجوههن المريضة وأجسادهن المهدودة من جلسات الكهرباء.

* * *

الأسرار مرايا مكسرة، مرعبة، تعكس حقائق مستترة،
كل شخص يراها مختلفة حسب زاوية رؤيته.
الأسرار...

سلطعونات صغيرة، لونها أحمر يبهت مع الوقت ويرخي قبضته، لكن لا يمكنك الاقتراب منها من دون أن تحس باللزوجة.

تتضاءل الأسرار مع الزمن وتزوي حسب أهميتها في حياتنا وحسب الأشخاص الذين ظلوا أحياءً ليكشفوا لنا حقيقتها، وغالباً ما تكون الحقيقة التي يحبون هم رؤيتها، لذا تظل الأسرار أسراراً.

في عائلة أبي هناك سر عمتي المجنونة، وفي عائلة أمي سر زوجة خالي المنتحرة، وسر خالتي «وفاء» التي وجدت زوجها مقتولا أمام مدخل العمارة التي سكنا فيها في «أبو ظبي». قتل بعد زواجهما بخمسة أعوام وإنجابهما بنتين، تفرغت لتربيتهما بعد موت زوجها.

غامضة معرفة الحكايات التي عتم عليها الوقت، وابتلعتها سلطعونات الشك والحرص على إخفاء الحقيقة. أجمع نتف الحكايات من أمي وخالاتي، من جدتي قبل موتها، وعمتي في لحظات صحوتها،

fb/mashro3pdf

ومن ابن عمي «حسـان» الذي استدرجه ليحكي لي ما سمعه من والديه، من أي قريب أو صديق قديم للعائلة، من أي أحد يمكنه ري شـغفي عبر فتح خزان ذاكرته لكشف معلومة صغيرة لا أعرفها.

منذ الخامسـة مـن عمري، وحيـن انفصلت أمي عن أبي وسـافرت إلى الإمارات، وأنـا أعيش مع جدتي التي تحكـي أن عمتي مرضت بعد مـوت خطيبها خلال الاجتياح الإسـرائيلي لبيروت، تـروي جدتي القصة قائلة:

«مرضت بعد ما شـافت دمه بيتصفى قـدام عيونها، الله يرحمه كان شاب متل الأسد».

هكذا كانت جدتي تؤكد أن مرض عمتي لم يكن قبل هذا الحدث، وأن صدمة فقدها خطيبها قادتها للجنون.

تقسـم أمـي أنها منـذ معرفتهـا بأبـي وزواجها بـه وعمتـي مريضة، حـالات جنونها تعود لسـنوات الطفولة كمـا أخبرها أبـي، وتؤكد لي أن خطيب عمتي مات بسببها أيضاً.

حكت لي ذات مرة قائلة:

«مات مـن اللي شـافه منهـا، ومن اللـي كانـت تعمله فيـه، عمتك هيدي كان لازم يحطوها بالمستشفى من زمان، لشو عملوا المستشفيات إذا مش لهيدول النـاس، أول ما انخطبنا أنا وبيـك، تعرفت بخطبتنا على منير رفيق خالك اللـه يرحمه، ومنير حبها كتير وخطبها، والله يسـامحها سـتك وبيك ما خبروا الحقيقة عن مرضها وصار يكتشـف الأشـيا شوي شـوي، حالات جنونها ما بتتخبى على حـدا، لغاية مرة بالليـل كان منير ببيت سـتك وكان أيامها الدنيا حرب وضرب، عمتك طلعت من أوضتها

fb/mashro3pdf

لابسة تنورة قصيرة وبلوزة من دون بطن، ومكياج طالسة وجهها فيه طلس، وبتصير تقلد الأرتيستات قدام منير، هو جنّ جنونه، وصار يسأل ستك شو القصة، وستك تجيب كلمة من الشرق وكلمة من الغرب، سحب حاله وطلع من البيت، وما وصل لأول الشارع إلا إجت قذيفة على سيارته وصار مية شقفة».

قريبتنا الممرضة هنادي التي تعمل في «دار العجزة» كانت تقول إن عمتي ولدت وهي تحمل المرض بين خلاياها، وظهر أول مرة وهي في الخامسة عشر من عمرها، لأن أمها وأبيها أولاد عم، تهمس لي أن هذا المرض منتشر في عائلتنا وأنه يصيب النساء فقط، وأن ابنة عم لأبي تعيش في سوريا ماتت من المرض ذاته منذ عشرين عاماً.

جارتنا «أم فؤاد» تقول إن عمتي ممسوسة منذ صارت في العشرين، وإن الجني الذي تلبسها لا يتركها تهنأ بحياتها، وإلا لماذا تمر أوقات تبدو فيها طبيعية تماماً، ولماذا يتغير صوتها ويخشن عندما تأتيها الحالة. تقول:

«كانت بتتغاوى كتير قدام المراية، أحياناً بتكون من غير تياب هيك قال الشيخ لما رحنا عنده أنا وستك الله يرحمها.. قال البنت صغيرة وحلوة وبيضا وما بيسوى توقف عريانة قدام المراية، عشقها جني وتلبسها وما قبل يطلع منها... ما كان جني هين، كان من ملوك الجن... يا مسكينة ستك شو لفت ودارت عند الشيوخ، وشو دفعت مصاري وما حدا قدر يعمل معه شي».

أما أم سمير قريبة جدتي فكانت تقول: كله من ربنا، المرض قضا وقدر... اختبار من عند الله، ربنا بده يختبر ستك وجدك إذا رح يتحملوا المصيبة هيدي... يا مسكينة ستك، مات جدك وتركلها الهم كله».

fb/mashro3pdf

كلما سـمعت مصادر الحكاية المختلفة أصبت بهلع أكبر وتخيلت نهايتي، ماذا لو كان المرض وراثياً حقاً وسيظهر علي بعد حين؟

سأحاول النوم من جديد، لن أفكر بحالة عمتي التي تدهورت أكثر فأكثر.

سأحاول أن لا أفكر بأمي التي تلح علي لاستخراج جواز سفري.

* * *

تلـح أمـي علـي منـذ وصولهـا إلى بيـروت كـي أسـافر معهـا إلى الإمارات، تقول لي:

«ما عاد إلك حدا ببيروت، شو قاعدة تعملي هون».

أنظـر إلى وجهها المتورم مـن حقنة «البوتكس» والى شـفتها العليا المنفوخة بأثر الكولجين، أعرف أنها تأتي مرتين في العام للقيام بعمليات تصحيح وترميم لوجهها وجسـدها.. تقول إنها تأتـي لرؤيتي، ربما يكون كلامها صحيحاً لكنها تأتي أيضاً للعودة «بنيو لوك» جديد.

أقول لأمي:

«ميـن رح يزور عمتي بالمستشـفى لو أنا سـافرت، مين رح يطلعها إجازة لما تكون منيحة».

ترفع يديها في وجهي، تضرب كفاً بكف قائلة:

«شـو هيدا... ليك ملا حكـي.. إنت رح تجنني، بـدك تبقي هون علشان واحدة مجنونة».

تزعجنـي عبارات أمي، لا أسـتطيع مواجهتها. لم أقـدر على القول لها إنني لا أستطيع التخلي عن عمتي، بعد وفاة جدتي، وموت أبي».

أحياناً في لحظات الغضب التي تمر بي أقول في سري أنه يستحيل على أمي إدراك عجزي عن هجر عمتي والتخلي عنها والاكتفاء بإرسـال

fb/mashro3pdf

النقـود لهـا، وزيارتها كل عـام عندما آتي فـي زيارة صيفية إلـى بيروت. أمـي فعلت ذلك معي وأنا طفلة لذا لا يمكنهـا أن تتبنى نوعاً مختلفاً من المشـاعر. ولا يمكنها أن تعي أن الدائرة ضاقت علي وعلى عمتي وبقينا وحدنا.

* * *

اليوم عيد ميلادي.

على هاتفـي الخليـوي خمسـة اتصالات مـن أمي ورسـالة صوتية تعايدني فيها، ومعاتبة لأنني لم أذهب إلى الجبل لنحتفل معاً.

وجـدت أيضـاً علـى الهاتف معايـدة من هاديـا صورة قلـب ينفتح وينقبض، وبين الحركتيـن تبرز رويداً رويداً عبارة «عيدك سـعيد وعقبال المية سنة».

لا أحـب التمنيات التقليدية بالعمر الطويل. إنهـا أمنيات غير لطيفة وباردة إلى حد كبير.

لا أحـد يتمنـى أن يعيش حتـى يبلغ المائـة عام، لا أحـد يحب أن يبتلـى بأمـراض الشـيخوخة ونكباتهـا، ورغـم ذلـك عند ذكـرى الميلاد يقولون «عقبال المية». يا لها من عبارة متعبة حقاً.

في بريدي الإلكتروني وجدت رسـالة من هند فيها معايدة وتحليل لمواليد هذا اليوم الذي قالت عنه إنه يوم مميز فلكيا، أرسلت إليّ تحليل عالم الفلك الصيني»باخو».

كانـت هنـاك أيضاً رسـالة مـن محمـدو، أرتعـش قلبي وأنـا أكبس الماوس، كان فيها عبارة واحدة

HAPPY BIRTH DAY NADA

fb/mashro3pdf

تباغتني فرحة دافئة.

أهواء متباينة تحركت داخلي بعد قراءة رسالته،

تجاهلتها بصمت.

اليـوم صار عمـري 24 عاماً، مضى على تخرجـي عامان، ومازلت عاطلـة عن العمل، لـم أجد الوظيفة المناسـبة، كما لم أنجـح في العمل كمدرسـة للأطفـال فـي مدرسـة ابتدائيـة، رفضـت أيضـاً عـرض وظيفة حكوميـة مملة في مكتب البريد، تبرع زميل أبي في مسـاعدتي للحصول عليها. كمـا أنه ليس لـدي ولـع يدفعني لإعداد رسـالة ماجسـتير أعقبها بالدكتوراه لأصير أستاذة جامعية.

هاجـس العمـل كان يلاحقني باسـتمرار، والسـؤال ذاتـه يتكرر في داخلـي، "مـاذا أريـد أن أفعـل بقيـة حياتـي بمـا أننـي لا أحـب الروتين اليومـي، وأكره التواجد في مكاتـب مغلقة لأقوم بعمل مكـرر، ماذا أريد أن أفعل إذن وأنا أُمضي نصف يومي على الإنترنت، أقرأ الصحف وأقوم بتجميـع المواد عـن الموضوعات التـي تجذبني، أكتب بعـض التفاصيل في مدونتي، أحكي عن السـينما، والموسـيقى، عن الأغنيات التي أحبها والأفلام التي أشاهدها، أحكي بعض ما لديَّ من قصص، أكتب أحلامي ووقائع يومي، أضع بعض خربشاتي. أحكي عن الرقص. الرقص الكثيف الـذي أحبه، وأخجل من الحكـي عنه، أكتب عن هوايتي فـي قراءة حياة المشاهير، ومعرفة أسـرارهم... إنها تفاصيل... أشـياء... يراها الآخرون سـخيفة، مضيعة للوقت، لكنها الأشـياء التي تشـكل قلـب عالمي ونواته ورغم ذلك لا أبوح بها.

أحياناً أفكر أيضاً في كتابة قصة محمدو كما حدثت.

fb/mashro3pdf

ربما سأفعل ذلك في يوم من الأيام.

* * *

ارتديت بنطلون الرياضة القطني الأزرق، وتي - شيرت أبيض، ونزلت الدرج إلى أسفل المبنى، دخلت إلى فرن "عبدو"، أوصيت على منقوشة جبنة، ثم اتجهت نحو المكتبة القريبة، اشتريت الجريدة، عبرت الشارع كي أعود إلى الفرن، سيارة حمراء تعبر من جانبي بسرعة البرق، تترك خلفها غمامة عالية من الغبار أشبه بزوبعة مفاجئة، عامل الفرن لم ينته بعد، أقف بانتظار وجبتي المرتقبة، الوهج المنبعث من النار يتسرب إليَّ، أحس ببداية نوبة حساسية الصدر، سأصعد إلى البيت حالاً وآخذ الدواء، وأنا أنظر للنيران المشتعلة في الفرن تذكرت حلم ليلة البارحة.

حلم سخيف جداً، أحس بالخجل حين يكون الحلم سخيفاً إلى هذا الحد، ومضحكاً أيضاً.

كان هناك مؤتمر للفئران... الغريب أنني أخاف من الفئران جداً، لكنني رأيت جماعة كبيرة من الفئران بأحجام متفاوتة، فئران سمينة ومنتفخة، وأخرى نحيلة، فئران بشوارب رفيعة وطويلة، فئران من اللونين الأبيض والأسود، رأيتها مجتمعة في قاعة واسعة، كانت ترتدي ثياباً مثل ثياب البشر، وكانت تتكلم أيضاً، تتناقش في أمر ما، لحسن الحظ لا أذكره. لكنها فجأة تغادر القاعة الواسعة وتنتشر في الشارع.

الشوارع تغص بالفئران المتضخمة التي صارت أحجامها تقارب البشر، والناس خائفة تفر بهلع، كنت أراقب الفئران المنتشرة من الشرفة، أشاهد الذعر على وجوه الناس التي تهرب بعيداً، أقرر الهرب وما إن أستدير بجسدي لأغادر الشرفة حتى أرى الفئران الكبيرة تملأ غرفتي أيضاً، كانت رائحتها بشعة جداً وهي تقرض بجوع كل ما تصل إليه.

fb/mashro3pdf

رأيـت أيضـاً عمتي تجلس علـى الأرض في وسـط الغرفة عاريـة، تقهقه بصوت مخيف، الفئران تسير على جسدها، وهي لا تبالي.

شـيء مرعب أن أسـتمر في تذكـر أحلامـي وتدوينها حتـى عندما تغزوها الفئران أيضاً.

وضعت إبريق المـاء على النار، أضفت إلى الكوب الزجاجي ظرفاً مـن الشـاي ثم المـاء المغلي مـا إن لامـس الماء السـاخن الشـاي حتى سـحبته بسـرعة قبل أن يصير لونـه أحمر داكناً. هاديا تسـخر من الشـاي الذي أشـربه، تصفـه بأنه "ماء سـاخن" فقط. دخلت إلـى غرفة الجلوس أمسك الصينية الصغيرة التي تضم المنقوشة وكوب الشاي، لم أكن أسير بسـرعة لكن قدمـي دخلت في طـرف السـجادة، فسـقطت الصينية على الأرض وتناثرت بقع الشاي مع الزجاج المكسور والمنقوشة الساخنة.

الشـاي السـاخن الذي انسـكب على الأرض أصاب يـدي بحروق طفيفة لكنها مزعجة.

غمرني إحسـاس بالتشـاؤم وأنا أكنس الأرض وأجمع مـا تناثر من قطع الزجاج الصغيرة.

عدت إلى المطبخ، أحضرت قطعة ثلج وصرت أمررها على ظاهر يدي في الأماكن التي أصابتها الحروق. عاودني إحسـاس الجوع فتحت البـراد أخذت علبة اللبنـة وكيس الخبـز، وضعت ملعقتين مـن اللبنة في نصف رغيـف وثلاث حبات من الزيتون، ثم سـكبت البيبسـي في كوب زجاجـي وعدت إلـى غرفة الجلوس، مشـيت بحذر خوفاً مـن أن تتكرر حادثة السقوط. أكلت سندويش اللبنة ثم تناولت دواء حساسية الصدر.

بعد مرور نصف ساعة شعرت بتحسن، أمسكت (الريموت كنترول) في يدي لأقلب إلى إحدى القنوات التي تقدم الأفلام الأجنبية في عرض

fb/mashro3pdf

متواصل، كان هناك إعادة لفيلم: Beautiful Mind»".

الفيلم الذي يؤدي فيه راسل كرو دور عالم فيزياء يرى أشخاصاً لا يبصرهم أحد غيره.

أكثر اللقطات رعباً بدت لي حين وضع ابنه في حوض الاستحمام وكاد الطفل الذي لم يتجاوز عامه الأول أن يغرق، فيما البطل يبرر سلوكه أمام زوجته بأن صديقه اللامرئي يقف بجوار الطفل. تنتهي أحداث الفيلم حين ينال العالم جائزة نوبل، من دون أن يجزم هل الأرواح التي كان يراها حقيقة أم خرافة.

انتقلت إلى قناة أخرى، تعرض فيلماً جديداً اسمه «ويجا». وخلال الإعلان عنه ذكروا أنه عرض أول. الفيلم من بطولة فنانين شبان، هند صبري، وهاني سلامة، وشريف منير، ومنة شلبي، وأسماء أخرى لا أعرفها.

أندمج في متابعة أحداث الفيلم، ما إن أصل إلى حدث النهاية والقتل العنيف الذي يقوم به أحد الأبطال، حتى أحس أن المشهد مفتعل جداً، يخلو من الصدق.

* * *

اقترحت عليَّ هاديا تقديم طلب للعمل في قناة فضائية تطلب معدي برامج وثائقية. يساورني الخوف من الفشل. لذا أتراجع عن كل خطوة من هذا النوع فيها مواجهات جدية مع الحياة.

تغيرت هاديا كثيراً بعد عملها في أوتيل فخم في شارع «الحمرا»، لم أعرف كيف أصف هذا التغيير الذي صار يحكم سلوكها، رغم أنها صارت أكثر ثقة بنفسها، إلا أن نقمتها على حياتها صارت أكثر وضوحاً. ارتفعت نبرة السخرية في صوتها، وصارت تحكي باستمرار

fb/mashro3pdf

عـن الفروقات بيـن «الناس اللي فـوق... والناس اللي تحـت» التي ترى نفسـها تنتمي إليهـم. غالباً ما كنـا نختلف أنا وهي بعد نقـاش طويل بين ما يجب وما يحدث، نقاش لا يؤدي إلى نتيجة سـوى ابتعادنا عن بعضنا بعضا، أحزننـي هذا الأمر كثيـراً، لكنني كنت عاجزة تمامـاً عن الوصول معها لرؤية مشـتركة، في بعض الأحيان أحـس بتعاطف كبير نحوها،أجد لهـا الأعذار وأبـرر كل ما تقوله ومـا تفعله، لكن فيما بعد أشـعر بالحنق وأن كل ما قالته غير مقنع.

قالت لي يومهـا: «صدقيني ندى هيدي فرصة دهبية إلك إذا مشـي الحال، أنا بالصدفة سـمعت عميل نـازل عنا عم يحكي مـع صاحبه عن البرامـج الوثائقيـة وإنه قليل مـن الناس عنـده موهبة فيها، قـال إنه القناة عاملـة إعـلان تطلـب معـدي برامج، فكـرت إنـه لازم تقدمـي لأنه هلق فـي وظائف شـاغرة.. عنجد إنـت فيكي تعملـي أكتر من موضـوع مميّز بيوافقولك عليه».

لا أحـب كلمة «وظائف شـاغرة»، تجعلنـي أحس أننـي أنضم إلى قطيـع الفئـران، وهـم يلهثون خلـف قطعة مـن الجبـن، وفـي النتيجة لا يحصل على القطعة إلا فأر واحد لا يشترط أن يكون الفأر الأسرع، لكنه الأكثر حيلة.

كنت مقتنعة أيضاً أن الفرص غير عادلة، ولا يحكمها عنصر الكفاءة فقط، هناك عوامـل كثيرة أخرى من بينها الدقة فـي التعريف عن النفس، واستعراض المهارات بذكاء ولباقة، الواسطة أيضاً تلعب دوراً مؤثراً.

لذا لم أتشـجع فـي المحاولـة لأن خروجي من ذاتي للـكلام عنها شـيء لا أقوم به بسـهولة، ولا أعرف بدقـة كيف أعبّر عنـه، كما أنني لا أمتلك أية واسطة.

fb/mashro3pdf

قمت نحو جهاز الكمبيوتر، كبست زر التشغيل، جلست أنتظر إقلاع كمبيوتري في فضائه، ما إن أصبحت الشاشة زرقاء، حتى قررت أن أعمل بنصيحة هند في الدخول إلى موقع عالم الفلك الصيني «باخو»، وقراءة طالعي في يوم ميلادي الذي بدأ بنوبة الحساسية وكوب الشاي المكسور، والمنقوشة المرشوشة بالزجاج، ولسعات الشاي على يدي.

قرأت تحليل «باخو» ونبوءاته الغامضة، لكنني كنت أثق بنبوءات هند أكثر.

وثقت بها حين قالت لي إنني لن أتزوج «كامل». وحين تعرفت إلى «محمدو» قالت لي وهي تفتح ورق «التاروت»: «واو.. في شغف، حب، جنون... شي متل الانخطاف السريع".

لكنني حين سألتها ماذا سيحصل معي فيما بعد، والورق مفتوح أمامها على مساحة الطاولة، نظرت إليه نظرة غامضة ثم حركته بخفة لتجمعه في يدها قائلة: "إنها تحس بالتشويش، ولا تقدر على التركيز أبدا، استحلفتها كثيراً أن تخبرني عما رأته لكنها أنكرت بشدة رؤيتها لأي شيء. خلال سنوات الجامعة، كانت هند تمارس علينا قدرتها على قراءة الطالع. كنا نستمتع باللعبة، وكلما أصابت نبوءاتها تصر أكثر على التوغل فيها.

مضت أربع ساعات وأنا منهمكة في الإنترنت، كنت أتصفح الكثير من المواقع، وأجري محادثتين عبر الماسنجر، إحداهما مع مانويلا صديقتي الإنترنتية التي تنحدر من أم لبنانية وأب إيطالي، وتنوي القدوم لزيارة لبنان لأول مرة، ومشاهدة مسرحية فيروز التي ستعرض الشهر القادم في مهرجانات بعلبك. المحادثة الأخرى كانت مع قريب هند،

fb/mashro3pdf

د. فواز الذي يقيم في كاليفورنيا، والذي وعدني بأن يساعدني في جمع خيوط أولى عن حياة الشاعرة اللبنانية "ناهية نصار"، تلك الشاعرة التي ضاع معظم ما كتبته، ولم أعرف بوجودها إلا صدفة حين ذهبت العام الماضي برفقة هند لزيارة عمتها في "إهدن"، يومها عرفت بوجود شاعرة عاشت في خمسينيات القرن الماضي وأنشأت صحيفة للمرأة، واستمر صدور الصحيفة الأسبوعية لمدة عامين، لم أجد أي ذكر لصحيفة "ناهية نصار" في الكتب التي تتحدث عن تلك المرحلة، كما لم أعرف أحدا يذكر صحيفتها سوى بعض الأهالي في المنطقة، لكنهم لا يملكون إلا تاريخاً شفاهياً وصوراً غائمة بالأبيض والأسود "لناهية نصار"، وفي يدها نسخاً من مطبوعتها، وهي تحتفل باكتمال العام الأول على الصدور. تمكنت بصعوبة من إقناعهم بأخذ تلك الصور وإعادتها ثانية بعد نقلها إلى ملف على جهاز كمبيوتري.

في البداية كان الأمر مجرد رغبة كشف... استجابة لشغف جمع حيوات أشخاص لا أعرفهم، لكن فيما بعد سارت الأمور بشكل مختلف حين صار كل خيط جديد يشدني أكثر وأكثر لقصة "ناهية نصار".

حكت لي عمة هند عن قريبهم المهاجر منذ ثلاثين عاماً، "د. فواز"، وعن علاقته مع أولاد "ناهية نصار" الذين يقيمون في كاليفورنيا أيضاً. أخذت منها عنوانه البريدي وكتبت إليه عن رغبتي في معرفة حكاية "ناهية نصار"، وكيف يمكنني التواصل مع أولادها أو أحد معارفها القدامى، كذبت عليه، قلت له إنني باحثة وأعد دراسة حول الشاعرات اللبنانيات في أوائل القرن الماضي، خشيت أن أصارحه بأن الأمر عندي مجرد شغف بالمعرفة، مجرد محاولة نبش للوصول إلى شيء ما، ربما يكون مهماً، أو لا يكون. من يومها صرنا نتحدث من وقت لآخر،

fb/mashro3pdf

زودني بمعلومات عنها، أعطاني العنوان البريدي لابنتها الكبرى، وابنها، ووعدني بأن يمدني بنسخ من المطبوعة وبصور أخرى لتلك الشاعرة عند قدومه إلى لبنان هذا الصيف.

كنت أحس بفرح غامر كلما اكتشفت حقيقة غائبة. ناهية نصار إذن كانت امرأة حقيقية، شاعرة، وجدت وكتبت، ونشرت قصائدها، وأصدرت أول مطبوعة تعنى بشئون المرأة.

تحت قشرة الجوز الصلبة، تكون الثمرة المختبئة في تجاويف قشرة داخلية أخرى.. لكن حذار من تحطيم القشرة بقوة حينها ستتفتت الثمرة إلى أجزاء صغيرة لا يمكن جمعها من جديد ومعرفتها في شكلها المتكامل.

* * *

حين كتبت إلى ابنة "ناهية نصار" لم أحصل على رد سريع، تأخرت في الرد ما يزيد عن عشرة أيام، ثم وجدت في بريدي الإلكتروني رسالة مختصرة عبرت فيها عن امتنانها لمحاولتي البحث في حياة والدتها وما كتبته ونشرته، لكنها أوضحت أيضاً أنها لن تتمكن من مساعدتي كثيراً لأنها ملتزمة بساعات عمل طويلة، لا تترك لها الوقت لأية مشاغل أخرى، كما أن كل ما يمكنها أن تساعدني به موجود في بيتهم في لبنان، لأنه لم يكن من المعقول أن تصطحب معها إلى أميركا أعداد مجلة قديمة أصدرتها أمها في أوائل القرن الماضي، ثم في ختام الرسالة ذكرت أنها ستتواصل معي في حال قرارها بالقدوم إلى لبنان.

شكرتها على تجاوبها معي.

كتبت لفواز من جديد، أخبرته بما حدث، طلب مني انتظار مجيئه في الصيف.

fb/mashro3pdf

"ستحصلين على كل ما تريدين معرفته، لا داع للعجلة".

كتب لي فواز.

* * *

رنّ الجرس.

أصابعي متعرقة، دوار بسيط في مقدمة رأسي أحسست به وأنا أسير نحو الباب، لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا جائلة في عالم الإنترنت. نظرت من العين السحرية، ميزت هاديا برفقة أخيها زين، فتحت الباب بسرعة، أرتفع صوت هاديا:

"هابي بيرث داي حبي"، يدها تقبض على باقة الورد الجوري الأحمر الذي أحبه، "زين" يقف بجانبها وفي يده قالب حلوى صغير.

ناولني "زين" القالب وهو يرفع قبعة الشمس عن رأسه وينحني قليلاً ويقول:

"جينا نحتفلك بعيدك... عند العصر.. شفتي عيد ميلاد الساعة أربعة ونص".

جلست "هاديا" في الصالون بعد أن وضعت الورد في المزهرية، أما "زين" فقد فتح مغلف قالب الحلوى وجلس على مقربة من شقيقته، قال:

"يا جماعة أنا معي وقت ساعة بس وبدي روح على الشغل، جيبوا الصحون، وكاسات للعصير وتعوا لنغني وكل واحد يروح يشوف مصالحه بهالدنيا".

غمرني إحساس بالاختناق عند حلقي، كنت أقاوم رغبة حادة بالبكاء. خرج صوتي ضعيفاً:

fb/mashro3pdf

"بس إنتوا تذكرتوني.. وجيتوا لعندي".

حولت "هند" الكلام إلى دعابة قائلة:

"وشو نحنا ما منكفي.. مش عاجبينك".

قلت:

"إنت بتعرفي إنه مش هيك قصدي".

"يالله يا بنات، خلينا ناكل الجاتوه، لأني رح إتأخر على شغلي" قال زين.

"إنت مش قلت معك وقت ساعة... لسه ما مرق ربع ساعة... وبعدين شو أخبار شغلك هالأيام عن مين الإعلانات" سألته.

"هيدي الأيام الإعلانات عن حفلات الصيف في نهر الفنون، وعن مهرجانات بعلبك، وشوي عن المونديال.. إيه ندى بالمناسبة إنت مين بتشجعي".

"ما بعرف" قلت له، ثم التفتت نحو هاديا، وسألتها "إنت مين بتشجعي هاديا".

ردّت وهي تغمز لي بعينها:

«إيطاليا... لأنه عندهن شباب حلوين».

قلت: «خلص أنا متلك رح شجع إيطاليا كمان».

ضحكت هاديا بصوت مرتفع وهي تقول: «لا.. لا أنت لازم تشجعي فرنسا... بيكفي إنه عندهن تيري هنري».

بدا على «زين» المتابعة وهو يسألني: «بتحبي تيري هنري ندى».

«مين هنري هيدا... ما بعرفه أصلاً» قلت.

علقت «هاديا» بخبث:«ندى بتشجع اللاعبين الأفارقة».

fb/mashro3pdf

ابتسمت متجاهلة التعليق، وانسحبت إلى الداخل لأحضر الصحون.

ارتفع رنين هاتفي الخليوي، حين نظرت إلى الشاشة وجدت اسم هند.

بعد أن سلمت عليَّ وعايدتني قالت: "شو رأيك تجي تتغدي معنا".

"لا ما بقدر اليوم، خليها ليوم تاني، هلق قاعدين أنا وهاديا وزين...".

"طيب سلميلي عليهن، ورح ننطرك بكرة، أوكي".

"أوكي... باي".

- مين... هند.

سألني زين وبدا وجهه جامداً.

- إيه هند، وبتسلم عليكن...

شو أخبارها..؟ منيحة؟ بعدها هي وزياد سوا؟

ردّت هاديا:

"إيه لشو كل هالأسئلة، خلص ما نسيت القصة لسه".

تمتم "زين":

ما في قصة أصلاً... بس عم بطمن على أخبارها.

قلت:

"أخبارها منيحة، ماشي الحال هي وزياد بعدهن مع بعض، ويمكن يتزوجوا قريباً...".

بدا انقباض واضح على وجه زين، قبل أن تعلق هاديا قائلة:

fb/mashro3pdf

"يا خيي.. إنتوا ما بيمشي حالكن مع بعض... لا أنت متلها ولا هي متلك، أفكاركن مختلفة، لشوا الزعل، البنت كانت مستوعبة هالشي من الأساس وواجهتك فيه، يعني هي ما غلطت معك، لا خدعتك ولا قالتلك منجرب إذا مشي الحال، من الأول قالتلك نحنا أصحاب وبس، وهيدا شي ما بزعل".

عندما وصل الكلام عند هذه النقطة، وضع زين الطبق من يده ثم وقف وهو يقول:

"طيب أنا تأخرت صار لازم أمشي".

وضع قبعة الشمس على رأسه. كان طوله معتدلاً لكنه بدا أطول من العادة، مع القبعة واللحية التي يتركها طويلة قليلاً، رغم التناقض بين اللحية وبين القبعة و(التي - شيرت) البيضاء التي يرتديها للعمل. كان وجه زين ملوحاً باحمرار خفيف نتيجة تعرضه للشمس، يبدو أكثر وضوحاً حين تكسو ملامحه احتقان مفاجئ.

- "هيئتك زعلت... معقول تزعل بعيد ميلادي وكون أنا السبب" قلت له وأنا أحاول أن أستبقيه للجلوس معنا.

"لا والله ندى... تأخرت على الشغل، صار لازم أمشي".

خرج "زين" بسرعة، أغلق الباب وراءه بحركة أصدرت صوتاً مرتفعاً.

"ليه قلتيله هيك هاديا، بين عليه إنه تضايق كتير، ما كان فيه داعي لهالكلام".

"في داعي، ما شفتي كيف وجهه تغير بس سمع اسمها، خلص هي ما بتحبه، وهو لازم يقتنع بهالشي وينسى، ويتعامل عادي... اللي يبيعك بيعه".

fb/mashro3pdf

"أوف هاديا أنت بتعرفي منيح إنه خيك مش من هالنوع من الأشخاص، وأنه بيضل متمسك بقناعاته وأشيائه والناس اللي بيحبهن لآخر لحظة، صح أو أنا غلطانة؟"

"صح.. بس في حالة هند ما بينفع هالكلام، البنت بتحب ومتل ما عم تقولي إنها رح تتزوج، والكل عارف هالشي".

اندفعت للقول:

"أنا قلت يمكن يتزوجوا.. هلق عاملين مساكنة".

غرقت هند في ضحك مفاجئ وهي تقول:

"وين خيي يسمع إنها عاملة مساكنة، وهو اللي بعده عايش بالقرن الماضي".

"لا هاديا... زين مش عايش بالقرن الماضي بس عنده قناعات معينة اجتماعية ودينية وملتزم فيها، كل واحد حر بحياته، يعني ما حدا لازم يستنكر أفكار التاني...".

"طيب وأنت شو رأيك بالمساكنة؟"

"أنا... ما بعرف... ما فكرت بالموضوع، يعني ما حدا عرضها عليَّ، بس تنعرض عليَّ بفكر".

تناولت هاديا علبة سجائرها "مارلبورو لايت" من حقيبة يدها، أشعلت سيجارة وهي تقول:

"بتعرفي ندى... أنا عم فكِّر أعمل هيك شي، بس بشكل تاني، يعني متل زواج سري".

غمرني إحساس بالذهول واندفعت مني أسئلة متلاحقة:

"مين؟ كيف؟ إيمتى؟ ليه؟"

fb/mashro3pdf

"روقي... رح خبرك.. بتتذكري "معاذ" الشاب الخليجي اللي قلتلك عنه من أسبوعين إنه جاب لي بارفان هدية، عرض إنه يتزوجني بالسر، ويجيب لي شقة هون، ويصير يجي كل شهرين أو ثلاثة يمضي أسبوع أو أكتر ويفل".

"بس أنت ما بتحبيه، على حسب ما فهمت منك".

"شو ضروري حبه، شو رح أعمل بالحب".

"هاديا... حبيبتي أنت بتعرفي إني ما بقتنع بهيك حكي".

"ما بتقتنعي... لكن بشو بتقتنعي... أنت لما عملتي علاقة مع محمدو كنتي بتحبيه صح.. بس ما قدرتي تتزوجيه.. كان عندك أسبابك.. مش هيك... شفتي كيف الحب ما بيفيد دايماً".

"أنا ظروفي مختلفة... بعدين بليز ما بحب أحكي بالموضوع".

ساد توتر في الغرفة، كسرت هاديا الصمت بعد مرور ما يزيد عن دقيقتين، قالت لي في ما يشبه اعتذار:

"معلش ندى مش بقصدي.. هيئتي اليوم زعلت زين وزعلتك.. أنا رح فل هلق، فكّري بموضوع الشغل اللي قلتلك عنه، بروح معك بس بدك تقدمي الطلب".

بعد ذهاب هاديا كنت أنظر إلى قالب الحلوى وأحس بحيرة ماذا سأفعل به؟ ليس لي أية علاقة مع الأطعمة الحلوة، فقدت متعة الإحساس بالمذاق الحلو منذ ما يقارب سبعة أعوام حين بترت رغباتي نحو الشوكولا والحلويات.

من قال إن الرغبات لا تبتر نهائياً؟

في داخلي أتمنى الآن لو كان بمقدوري أكل قطعة من قالب

fb/mashro3pdf

الحلوى والاستمتاع بها. لكن الإحساس بنكهة الأشياء شديدة الحلاوة ترفع إلى سطحي أحاسيس متشابكة ما بين الذنب والغثيان والبدانة المتخيلة، المرار أيضاً، غالباً حين أجبر نفسي على تناول قطعة من "الجاتوه" أو "البقلاوة" أو "الشوكولا" أن تترك عندي طعماً مراً يلازمني وقتاً طويلاً حتى أنساه، وقتاً يجعلني أتوقف عن الاقتراب من السكر لأشهر عدة.

* * *

استيقظت باكراً.

ليلتي على ما أذكر خالية من الكوابيس والأحلام، نمت عدة ساعات متواصلة. لم أبصر من شق باب غرفتي المفتوح على ظلمة أية وجوه مرعبة بشعور سوداء منكوشة، أو عيون خالية من الحواجب والرموش تنفتح باتساع وتتحرك حدقاتها بسرعة، وجوه بأسنان كبيرة وسط فم يشبه فم التمساح، لم أشاهد كل ذلك هذه الليلة كما لم أحس بحضور "الجنية" المرعبة ذات الشعر الأحمر التي تزورني بين حين وآخر، تقف مقهقهة قرب سريري تهزه كثيراً ثم تمضي بعد أن تتأكد أنني استيقظت مفزوعة.

أخذت حماماً سريعاً، شربت قهوتي، وأكلت قطعة من الجبنة المربعة، ارتديت ثيابي، بنطلون أسود، وبلوزة بيضاء، أحسست أن وجهي يبدو مرهقاً رغم أنني نمت جيداً تلك الليلة.

كبست زر تشغيل كمبيوتري، العالم الرائع الذي أعيش فيه، نافذتي على العالم، على واقع آخر يوازي واقعي أهمية، عبره تواصلت مع مانويلا ومع فواز وغيرهم. عبر مدونتي تعرفت إلى حكايات كثيرة تتقاطع

fb/mashro3pdf

مع حكايتي، وكتب إلي أشخاص أرعبتهم الكوابيس التي تنتابني، البعض كتب لي ليعطيني نصيحته ويسألني عن ديانتي، فيما شخص آخر قال لي أنني ممسوسة وينبغي علي إبعاد هذا المس عن طريق زيارة أحد الشيوخ. اتفق الكثيرون مع هذا الرأي، ولم يعلق سوى ثلاثة أشخاص على الرأي القائل بأن علي استشارة طبيب نفسي لأني أعاني من اضطرابات نفسية.

أخاف أكثر...

يزداد هلعي وأنا أسمع نصيحة اللجوء إلى طبيب نفسي... أتجاهل المرسل، ولا أعلق على رسالته.

أستمر في كتابة يومياتي، عن الموسيقى التي أحب، عن الأفلام التي تترك مشاهدها بصمات في روحي، أحكي عن بيروت في أيام الصيف، عن الشمس والبحر، عن السياح الذين تزايد عددهم هذا العام مقارنة مع العام الماضي، أكتب عن علاقتي مع أمي التي تمضي أيامها بين البحر والجبل. أحكي عن هند صديقتي الشجاعة، وعن نجلا جارتي التي ليس لها علاقة بالكمبيوتر لكنها تفرح لأنني أكتب عنها. أكتب عن زياراتي لعمتي في المستشفى، وعن الرعب الذي يلاحقني طوال يومين عقب كل زيارة.

يطلب مني قراء مدونتي وضع صورتي، أتردد رغبة بمزيد من الغموض، مع وعد بالقيام بذلك قريباً. أتبادل عناوين المدونات مع رفاقي الإنترنتيين، أقرأ في مدونة «أمنية الفتاة الغريبة» عن حياة فتاة عراقية في كندا، منذ هروبها أيام حكم صدام حسين وحتى وقوع العراق تحت الاحتلال الأميركي، تصف أمنية تجربتها مع الكتابة، وقرارها طباعة كل ما كتبته في كتاب، أرسل إليها رسالة تحفزها على ذلك، نصير صديقتين مع استمرار الرسائل اليومية، نحكي لبعضنا باستفاضة، نبوح

fb/mashro3pdf

بما نتردد بالبوح به لو كنا نجلس وجها لوجه.

أدخل إلى مدونتي، أقرأ التعليقات المكتوبة حول أغنية «سيلين ديون» التي أضفتها البارحة. تطلب مني قارئة تطلق على نفسها اسم «ابنة الخريف» أن أضع أغنيات للمغنية الكولومبية «شاكيرا».

فتحت التلفزيون على قناة الأفلام، كان فيلم «نهر الحب» لفاتن حمامة وعمر الشريف، فكّرت أن أكتب لقراء مدونتي عن سمو أداء فاتن حمامة في هذا الفيلم، تحولها عن أدوار الفتاة البريئة لتدخل في مناطق نفسية أكثر صعوبة. قلبت المحطات متنقلة إلى قناة الأفلام الأجنبية، كان فيلم «الساعات» الذي يروي جزءاً من حياة الكاتبة البريطانية فيرجينا وولف، على قناة الأفلام الأجنبية الثانية كان هناك فيلم أكشن لسيلفستر ستالون، عدت لفيلم «الساعات» كان في لقطاته الأخيرة حين تنزل فيرجينا وولف إلى الماء منتحرة ويتردد صوتها وهي تغوص أكثر في الماء قائلة:

«ينبغي على البعض أن يموتوا ليقدر الباقون قيمة الحياة».

* * *

غادرت البيت عصراً.

ذهبت إلى زيارة هند في البيت الذي تسكنه منذ أشهر مع زياد في «شارع حمد».

عند مرور السيارة من أمام سكن الموتى، تذكرت أن جدتي وأبي دفنا هنا في «مقبرة الشهدا»، في ذات القبر، جثة على هيكل، ارتعاش في قلبي، برودة في أصابعي، أشد على حقيبة يدي، أقرأ «الفاتحة» على روحيهما، وأتذكر أنني لم أجرؤ على الدخول أبداً إلى «المقبرة». لماذا كنت أخاف كل هذا الخوف، وكما لو أن القبر سينفتح ويظهر لي رأس

fb/mashro3pdf

جدتي ثم تندفع يداها لتقبض عليَّ لأكون بجوارها، فيما أبي سيهز رأسه بالموافقة كما يفعل عادة.

نزلت من السيارة قرب تعاونية صبرا.

شارع «تعاونية صبرا»، يبدو لي واجهة محسنة قليلاً مقارنة بالمناطق المختفية خلفه، «أرض جلول» ثم منطقة «صبرا» التي تعتبر أحد الأماكن التي تخزن البؤس في بيروت، إنها خليط من أشياء كثيرة ومن عدة جنسيات، اللبنانية، والفلسطينية، العراقية، السورية، والسودانية وغيرها، مكان تحدث على أرضه أمور قانونية وغير قانونية،تتم بعشوائية كما هي حال المكان وسكانه المغمورين بالفقر والبطالة والجهل. أناس مشاكلهم منسية تماماً وقلما يتم الحديث عنها في العلن، رغم أنها من الممكن أن تنفجر في أية لحظة وتطفو على السطح مباشرة، مهددة بالخراب. أذكر في برنامج شاهدته على التلفزيون عن بيروت في أوائل القرن الماضي أن هذا المكان كان فيه سكة قطار استحدثها الجيش البريطاني الذي احتل بيروت في الحرب العالمية الثانية عام 1941 وكانت سكة الحديد تمتد من «تعاونية صبرا» حالياً إلى تربة الداعوق فالمطار القديم مروراً بأرض جلول بمحاذاة تربة ضحايا جنود الحلفاء، ثم تدخل المكان المسمى الآن بحرج بيروت.

كنت أمشي، أنظر نحو الزحام، سيل من السيارات يهبط من منطقة «الطريق الجديدة»، عند مفرق «الدنا»، حيث تبدو الأرض مستوية قليلاً أو منخفضة نسبياً، ثم ترتفع في الشارع المتجه نحو الجامعة العربية، هناك يبدو جامع «الإمام علي» كما لو أنه مبني عند أقدام هضبة صغيرة.

«شارع حمد» أكثر هدوءاً، بعيداً عن صخب الشوارع المجاورة، شارع صغير وجانبي، وكما لو أن سكانه كانوا هنا منذ أيام بيروت

fb/mashro3pdf

العتيقة، لقد استمد هذا الشارع اسمه من اسم الشهيد «عمر حمد» الذي أعدمته تركيا مع شهداء آخرين في السادس من أيار عام 1916.

كبست الجرس مرتين، صدى رنين لطيف وغير مزعج للأعصاب. فتحت لي هند الباب، كانت ترتدي بنطلوناً أزرق من القطن وبلوزة قطنية بيضاء، شعرها الأسود القصير بالكاد يغطي العنق. تطلي هند شفتيها بلون وردي صريح، إنه الزينة الوحيدة التي تضعها على وجهها.

في غرفة الصالون كانت تضع موسيقى "بودا بار".

بدأت تحدثني بحماس كبير عن محاضرات "التأمل التجاوزي" التي ترتادها منذ شهر ونصف، وعن الطاقة الروحية التي صارت تتدفق منها.

"شي رائع ندى، تحليق روحاني غريب بتحسي فيه".

"شو بتعملوا يعني؟" أسألها.

"المحاضرة الماضية طلب منا المحاضر نجيب معنا قطعة قماش بيضا، وتفاحة، ونفرد القماشة وعليها التفاحة، ونتأمل...".

"وبعدين؟"

"بعدين بتصيري حاسة بانسجام مع الكون حولك، بتحسي إنك متوازنة وعم تتخلصي من تراكمات الحياة العصرية".

"يوغا يعني".

"لا.. لا.. شي تاني أعمق... مش رح تفهمي الحالة إلا إذا جربتيها".

فجأة تنتقل هند إلى موضوع آخر قائلة:

"ندى الأسبوع الجاي رح نسافر أنا وزياد على قبرص لنتزوج مدني".

fb/mashro3pdf

"إيه إنتوا صارلكن مدة عم تفكروا بالموضوع... يعني خلص أخدتوا القرار؟"

"إيه خلص... أنا خبرت أهلي وهو خبر أهله.. مش موافقين بس خلص هيدا قرارنا وبعدين أنا وزياد معتمدين على حالنا عم نشتغل وعايشين والدنيا ماشية ما بدنا حدا يتدخل بحياتنا... بكل الأحوال نحنا رح نتزوج ونسافر على دبي بعد كم شهر بس لنخلص الأوراق".

"دبي..؟ ليه؟"

"أنا بدي أدرس بأكاديمية الطب التكميلي.. وزياد بده يشتغل".

"ما بعرف هند شو بدي قول... بس زمان نحنا وصغار كنت تتضايقي لأنه بيك وأمك طلعوا خطيفة وأنهن من ديانتين مختلفين، كنت تبكي لما يتخانقوا... كنتي تضلك تقوليلي يا ريت ماما وبابا غير هيك... يا ريتهن ما بيتخانقوا هالقد... بتتذكري لما كنتي تحكيلي كيف ستك لبيك بدها تاخدك على الكنيسة، وأمك كانت تتخانق معها... وبيك يعزل حاله عن الكل ويمشي من البيت".

"ما عادت القصة هيك ندى... أنا تغيرت كتير.. وفهمت الدنيا أكتر.. والغريب إنه بيي وأمي اللي ربوني على الحرية صاروا عم يناقدوا حالهن وبيقولولي "فكري.. وعلى مهلك..".

تذهب هند إلى المطبخ تضع إبريق الماء على النار، ثم تتناول مرطباناً فيه خليط من الأعشاب تضعها في إبريق زجاجي شفاف ثم تضع عودين من القرفة، تصب عليه الماء المغلي تحركه قليلاً وتتركه قرب شباك المطبخ الذي يطل على موقف سيارات أسفل المبنى، تقول:

"رح أتركه يبرد شوي... تعي لنقعد جوه... بتعرفي ندى بستغرب

fb/mashro3pdf

إنـه ببلد متل لبنان ليه ما بيصرحوا بالـزواج المدني، مش غريبة هالقصة، وليه ما بيسـمحوا إنه الطفل يتسـجل باسـم أمه متل ما بيعملوا بإسـبانيا، يعني "الأمومة يقين بس الأبوة شك"، مش هيك بيقول سعيد عقل".

رنّ الجرس رنتين، ثم دار المفتاح في الباب.

"إجا زياد" قالت هند.

اقترب زياد وسلّم عليَّ ثم عانق هند وجلسا متقاربين.

"كنت عم خبر ندى إننا مسافرين نتزوج".

قلت:

"اسمع شو بدها هند... بدها يسجلوا الطفل باسم أمه".

ضحك زياد بسـخرية ثم قال: "إيه ما هالبلـد ظاهرياً متحرر لدرجة بيبيـن أنه غربي أكتر مـن الغرب، ومن جوه هو مجتمـع طائفي.. وطبقي واستهلاكي وتقليدي بشكل عجيب".

قلت:

"أف كل هيدا... هيئتك لأنه قرب سفركن ما عدت طايق البلد".

كان زياد يتكلم عادة بسرعة، لكن هذه المرة كان متوتراً أيضاً قال:

"بلد عجيب... حتى سـواق التاكسـي بيشـرح نظريات بالسياسـة وبعلم الاجتماع ولازم نستمع ونقله صح".

قاطعته هند موجهة حديثها لي قائلة:

"بتتذكري سنة الماضية لما كنا عم نزور خالتك بالبقاع ولما سألنا جارتها أم أسـعد عن بنتها "هويدا" ما كنا عارفين إنه أخوها قتلها ورماها بالبير، وأنه كل الناس سامعين القصة بالأخبار إلا أنا وأنت كنا عم نسأل متل الهبلان... بتتذكري بعد ما مشيت أم أسعد كيف خالتك قالتلنا: "إيه

fb/mashro3pdf

ولو يا خالتي مـا انطبلت الدني بحكاية هويدا وقصة خيها وكيف اعتبروا القتل جريمة الشرف".

"وأنا كمان متلكن ما سـامع بالقصة... بس هويـدا كان عليها جوز عيون بيجننوا"، قال زياد وهو يبتسم بخبث.

"وأنت وين شفتها؟" تسأله هند بغيظ ظاهره استغراب.

يضحك زياد بصوت مرتفع قائلاً:

والله ما شفتها وين بدي شوفها... عم إمزح".

"فكـرت إنـه شـفت صورتهـا علـى التلفزيـون لمـا حكيـوا عن الجريمة..." بتشرب شاي أعشاب، سألته هند وهي تدخل إلى المطبخ.

"لا حبيبتي خلي هالأشيا إلك، أنا رح أعمل قهوة".

توجه زياد لي بالكلام قائلاً وهو يسير باتجاه المطبخ:

"بتعرفي ندى شـو أول شـي بيعمله اللبناني بعـد ما يتعرف على اسمك الأول؟

قلت: "شو؟"

بيسألك عن التاني يعني اسـم العيلة، وإذا ما قدر يوصل من خلاله للشي اللي بده يعرفه بيسألك: "ومن وين بلا زغرة؟ بتقومي أنت بتقوليله عن ضيعتك بيقوم بيعملك فرز ميداني سـريع ليشـوف مـن وين إنت... شـمال.. جنوب.. بيروت.. البقـاع... بس بتعرفي أحلى شـي لما بيكون الاسـم محير ما بيوضح شي، ولما تكون الضيعة فيها مسيحية وإسلام... لو تشوفي كيف ببين محرقص اللي عم يسأل".

ضحكـت كثيـراً وزيـاد يقلّـد بملامح وجهـه ويديـه الحكايـة التي حصلت معه في التاكسي.

fb/mashro3pdf

دخلت هند سألتها:

"إيمتى مسافرين بالظبط؟"

"أول الشهر الجاي رح نقعد أسبوع ونرجع".

"نيالكن".

"ليه نيالنا.. كان فيكي تعملي هيك بس إنت جبانة شوي.. صح أو أنا غلطانة..".

كانت تلمح إلى حكاية "محمدو"، لم أعلق في البداية، ثم قلت:

"يمكن كان فيي أعمل هيك... بس بالنتيجة ما عملت".

نظرت لي هند نظرة مباشرة ثم قالت:

"لازم تهتمي شوي بالنتايج ندى.. صح... ما تتركي الدنيا تختار عنك على طول... لأنه مش دايماً الاختيارات بتكون لصالحك".

* * *

بدأت علاقة هند مع زياد منذ أيام الدراسة، حدث بينهما تجاذب الأضداد. هو واقعي لا يؤمن سوى بالأشياء الملموسة، تسير حياته وفق قانون واضح، التفوق في الدراسة والعمل بهدف تحقيق النتائج في أقصر الأوقات، ورغم أنه يعيش صخب جيله وحيرته وتشتته بين قناعات متباينة، لكن زياد الذي ظلّ يتحرك ضمن مربع قناعاته بالبروليتاريا لم يكن يترك فرصة من دون الحديث عن شيوعية ماركس ولينين وعن تدهور العالم بعد تصاعد الرأسمالية وتقهقر معسكر اليسار، كان قارئاً نهماً في الفلسفة وعلم الاجتماع، لذا كان يوجه سخريته اللاذعة لكثير من الأحكام الدينية مصراً على أن هذه الآراء إذا كانت صحيحة، أي إذا كانت كلام الله فعلاً فإن من قام على تفسيرها قد عمد من خلال تلك التفاسير إلى استعباد البشرية وإخضاعها لسلطة الكنيسة والجامع. لم

fb/mashro3pdf

يكن زياد يشكو من ضائقة مادية، والده أستاذ في الجامعة، وأمه مديرة مدرسة، لكنه أصرّ على البدء بالعمل منذ سنته الجامعية الثانية، بدأ في تدريس اللغة الإنكليزية في مدرسة ابتدائية، وبعد تخرجه انتقل إلى تعليم المرحلة الإعدادية. يتقن زياد التخطيط لمستقبله جيداً، يعرف كيف يهندس الوقت بحيث لا يترك أشهر الصيف الثلاثة تمر من دون إنجاز واضح مثل الالتحاق بدورات تعلم اللغة الفرنسية، أو المشاركة مع مجموعة من الشبان والشابات في تنظيم دورات مجانية لتعليم الأطفال على الكمبيوتر.

هند التي تؤمن بالقدر كان لها اهتمامات أخرى، هي التي نشأت وحيدة من دون إخوة أو أخوات وبين أبوين مختلفي الديانة، خلال سنوات الجامعة كانت ناشطة في مجال الاهتمام بالبيئة، كنت أرافقها أحياناً في جولات جماعية إلى الأحراش والغابات، ثم بعد تخرجها من الجامعة انشغلت في البحث حول عوالم الفلك وعلم الطاقة والظواهر الغريبة، تحاول جاهدة الموازنة بين المخزون الديني لديانتين تعرف القليل عن كل منهما، وبين اهتماماتها الخاصة في معرفة تأثير حركة الفلك على الناس، وفي التخاطر عن بعد، وفي التأكد من حقيقة التقمص، وبين آراء زياد المادية التي تنفي تماماً كل ذلك، بقوله:

"كل هيدا الحكي حبيبتي عبارة عن كهربا زايدة بالمخ، ما في شي اسمه تخاطر عن بعد، هيدا وهم كبير، وكل هيدي المواقع اللي بتفوتي عليها على الإنترنت بدها تلم مصاري من الناس اللي متلك بيصدقوا هيك حكي".

اهتمامات هند لم تكن واضحة في البداية، كما لم تكن تسلك طريقاً محدداً في تلك الاهتمامات، لذا كانت تتأثر بكلام زياد وتنصرف

fb/mashro3pdf

شـهوراً عن اهتماماتها، تتوقف عن القراءة وعن البحث خاصة حين تقع فـي مواقف فيها تدليـس وخداع، كأن تشـتري مجموعة مـن الكتب عبر الإنترنت ثـم تفاجئ أن المعلومات التي فيها سـطحية للغاية وأن الهدف كله الحصول على مال فعلاً، ظلت على هذا الشـك حتى جاءت في يوم مـن الأيام وقالت لي إنها سـتمضي في البحث حـول قناعاتها ولا بد أن تصل يوماً لشـيء حقيقي ينفـي أو يثبت ما تؤمن به، قالـت لي إن لحظة "التنوير" هذه حدثت بعد حلم شاهدت فيه جدتها لأمها، لكنها لم تحك عن الحلم سـوى أنه تجربة روحية داعمة لها. منذ ذاك "الحلم" شـكلت هند سوراً خاصاً حول اهتماماتها، ومنعت أي أحد من الاقتراب منه.

* * *

أظن أن البشـر ابتدعوا الصداقـة ليتخلصوا من عزلتهـم المفروضة عليهم بحكم الطبيعة.

العزلة التي تبدأ مع حصار العقل. فالعقل الذي يعتبر خزان الأفكار واللغة هو في الوقت عينه سـجن انفرادي، كهف معتم جداً، بيت سـري لا يعـرف ما فيه إلا مـن يقطنه، بل إن مـن يقطنه لا يعرف تمامـاً ما فيه، لكثرة ما يحتوي من دهاليز، وغرف سرية.

أدركـوا أنهـم لو لـم يبتدعـوا كل تلـك الصـلات البشـرية الراقية، ويعنونوها بأسماء مختلفة سيظلوا يحيون في جزر منعزلة يحكمها قانون القـوة والمنفعة لـذا تواصلوا للقضاء علـى الوحدة، ليس فقـط خوفاً من الفناء، بل فراراً من الوحدة أيضاً، الوحدة التي تتخذ وجوهاً مختلفة.

تعرفـت إلى هنـد عند بيت مـدام "يسـرى" الذي تحـول إلى معهد لتعليـم الكمبيوتر فيما بعـد، كانت زميلتي حين التحقـت لتعلم دورة في الكمبيوتر حين كان عمري خمسـة عشـر عاماً. صرنا أنـا وهند صديقتين

fb/mashro3pdf

بسرعة غريبة، كان بيننا مشاركة في إحساس الغربة عن سائر البنات.

كنا نبحث عن عالم آخر أكثر رحابة. عالم لا يحاسبني على طلاق أمي وأبي، ولا يشفق علي لأن جدتي هي التي ربتني، عالم لا يحاسب هند لأن أبويها من ديانتين مختلفتين، ولا يترددان في الجهر بأنهما يدينان بمذهب "الأخلاق السامية" فقط ولا يلتزمان بتعاليم الأديان، ولم يدركا أن ابنتهما يكبر في داخلها وجع ما كلما سألها أحدهم "أنت مسيحية أم مسلمة" وأنها تأخرت حتى تصالحت مع هذه المنطقة المعتمة في داخلها.

كانت مدام يسرى تركن سيارتها في شارع قريب من شارع بيتنا، وقد وضعت على السيارة ورقة مكتوب عليها إعلان يشبه إعلان "تعليم قيادة السيارات" لكنها كتبت عوضاً عنه "تعليم الكمبيوتر" ورقم الهاتف. بدا الأمر بالنسبة لي مجرد محاولة لم أكن أظن أنها ستكون جدية.

قالت لي أمي في تلك السنة قبل سفرها:

"ندى حبيبتي لازم تتعلمي كمبيوتر لصير أحكي معك وشوفك ونعمل شات كل يوم، وإلك مني إني جيبلك كمبيوتر السنة الجاية".

لم أكن أفهم ماذا تعني أمي بعبارة "نصير نعمل شات كل يوم"، كما خجلت من سؤالها. حصة الكمبيوتر الأسبوعية لم تكن مدرجة في المنهج الدراسي، لذا كنت أخمن أن دخولي هذا العالم يشبه المستحيل. معرفتي للعالم تتم عبر التلفزيون، بالإضافة إلى غرامي بالأفلام والمسلسلات كنت مغرمة بالبرامج الوثائقية، لذا حدث مرة أن سمعت في إحدى البرامج عن تأثير الكمبيوتر على الأجيال القادمة، خبير إنترنت قال "إذا جاء عام 2002 على أحد وهو لا يعرف استخدام الكمبيوتر، فهو أمي بالنسبة لعصره".

fb/mashro3pdf

في ذاك الوقـت كان يفصلني ثلاثة أعوام عن قـدوم زمن أصير فيه في عداد الأميين، لذا صرت مشـغولة بوسـيلة تمكنني مـن فك لغز تعلم الكمبيوتر.

اتصلت على الرقم الذي وجدته على سـيارة مدام "يسـرى" رحبت بي المتحدثة بلطف ودماثة، أعطتني العنوان وذكرت لي مبلغاً بسـيطاً من المـال للالتحاق بدورة الكمبيوتر. احتفظت بالسـر عـن جدتي وعن أبي لمـدة أسـبوعين ظللت أتـردد خلالهما ثلاث مـرات أسـبوعياً على بيت مدام يسـرى في حجج ملفقة أتغيب فيها سـاعة ونصف مـن الزمن. فيما بعد حدث معي ما يحدث في الأفلام العربية الأبيض والأسود.

تتبعتني جدتي إلى بيت مدام "يسـرى" لم يكن قد مر على دخولي خمس دقائق وجلوسـي أمام شاشـة الجهـاز المغرية، حتـى رن الجرس وفتحت مدام "يسرى" الباب لجدتي التي بدا عليها التحفز للهجوم وهي تسـأل عني، ربما ظنت أنني في زيارة لبيوت إحدى صديقاتي اللواتي لا ترضى عنهن لكن حين وجدتني أمام الشاشة البيضاء لم تعرف ماذا أفعل هناك، لذا أمـام جهلها بحقيقة الموقف لم يمكنهـا إلا أن تأمرني بالعودة لأن أبي يريدني في الحال، رغم أن أستاذتي شددت في الترحيب بجدتي قائلة: "أهلا مدام... أنت أمها لندى". بدا على جدتي أنها أعجبت بكلمة "مـدام" هي التي اعتـادت أن يناديها الجميع "يا حجـة" أو في أحوال أخـرى"أم أحمـد". منحت شـبه ابتسـامة لمدام "يسـرى" وهي تسـتأذنها بالانصراف.

"أمشـي قدامي يا مقصوفة العمر". نزلت الجملة على سمعي مع ضربة على أعلى ظهري ونحن ندخل الأسانسير. كانت جدتي تمشي في الشـارع مثل دجاجة منفوشة الريش، ترتدي تنورة سوداء ضيقة، وقميص

fb/mashro3pdf

بألوان عدة يغطي عظام الورك، صدرها مرتفع إلى أعلى، قامتها أسطوانية الشكل، ورأسها ملفوف بإيشارب أبيض، تحرص جدتي على الظهور بأناقة السيدات عادة، كما تحرص على ارتداء خاتمها الثمين ذي الحجر الياقوتي الأحمر في بنصر يدها اليسرى، وعلى وضع إسوارتها العريضة في يدها اليمنى، تلك المرة بدت غير أنيقة، وبدت أقصر قامة لأنها ارتدت حذاءً مسطحاً لسهولة الحركة، ولكي تتمكن من اللحاق بي. كنت أسير خلفها بخوف وهي لا تتوقف عن وضع سيناريوهات مفترضة عن شخصية مدام "يسرى" إذ رغم توضيحي لها عن هويتها كأستاذة كمبيوتر في أحد المعاهد، وعن قيامها بدورات كمبيوتر بمبالغ بسيطة لأنها تنوي تأسيس معهد وبانتظار الحصول على رخصة للبدء بمشروع أكبر... إلا أن كل ما قلته لم يقنع جدتي، لأنها أطلقت خيالها الرحب في التكهن والافتراض بأن تعرضي لخطر محدق كان أمراً واقعاً، لولا إنقاذها لي في اللحظات المناسبة.

لم يكن الأمر لينتهي بهذا الشكل، فما أن وصلنا إلى البيت، وقبل خروج أبي عصراً ليلعب الورق في نزهته اليومية، حتى ارتفع صوت جدتي متردداً في أرجاء المنزل:

"أنا ما عاد فيي على بنتك يا أحمد... شوف لك حل معاها... أنت مش عارف هلق من وين جايبيتها..".

أبي الذي يقابل أحداث الحياة كلها ببروده المتأصل في شخصيته والذي كان معتاداً على مثل تلك الثورات الهائجة من جدتي، خاصة حين تحتاج إلى طلب المال منه، لم يبادرها بالسؤال عن التفاصيل، توجه نحوي سائلاً:

«شو القصة، كيف يا بيي بتروحي على محل من دون ما تخبري

fb/mashro3pdf

حـدا، بلكـي طلعت هالسـت بنـت حـرام وعملتلك شـي، وأنـت كيف بتصدقي إنها معلمة كمبيوتر مش يمكن بتشتغل شغل ما بيسوا؟»

– «يـا بابا أنا رحت أتعلم كمبيوتر لأعمل شـاتنغ مع ماما، وبعدين كل الناس عارفين إنها بتعلم كمبيوتر».

لم يفهم أبي حتماً معنى كلمة «شـاتنغ»، لكن كان يكفي ذكر كلمة «ماما» ليصير الموضوع أكثر سـهولة، كنت بغريزتي أعـرف أنه في رغبة دائمة لسـماع أخبارهـا، ربما كان في رغبة أن يسـمع مثلا أنها تعيسـة أو أنها انفصلت عن زوجها أو أنها عادت لتستقر في بيروت.

عدت وأوضحت كلامي قائلة وسط دموعي:

«بدي أتعلم كمبيوتر علشان صير أحكي كل يوم مع ماما».

وتبرعـت وحدي بالحكي عن مدام «يسـرى» وعـن الطلاب الذين معي بأنه معظمهم بنات وما في غير شاب واحد، بل بالغت في القول إن بإمكان جدتي الذهاب للتأكد من حقيقة كلامي.

ولأن أبي لا يحب الصدامات، ويعرف أن الأمر سـيظل معلقاً وقد يسـبب له نكـداً متواصـلاً أو يوميـاً إذا أنا أصريـت، وإذا تمـادت جدتي في الرفض، حسـم الأمـر بقوله: «إيه خلص يا حاجـة، ابقي روحي معها وشـوفي الجو هونيـك كيف شـكله» ملقياً بالمسـؤولية في عبـاءة جدتي كالعادة.

كانـا يتحدثان كما لو أن «جدتي» سـتقوم بدور جيمـس بوند الذي سيكشـف عـن العصابـة، وكمـا لـو إن درس الكمبيوتـر هـو درس فـي التدريب على السرقة أو أي نوع آخر من الانحرافات.

تسـتلذ جدتي فـي مراقبتي، وفـي إحكام سـيطرتها علـى عوالمي. كانـت متمكنة مـن ذلك، وكنت أحـس بالاختناق. رافقتنـي ثلاث مرات

fb/mashro3pdf

متتالية إلـى دروس الكمبيوتـر ولما تأكـدت من حقيقة الموقـف تركتني أذهب وحدي.

لـم أفكر في علاقتـي مع جدتي من قبـل، لم أفكر فـي طبيعة تلك العلاقـة، ربما لأنها صلـة لا تحتمل التفكيـر،أو لأن التفكير في جوهرها لن يغير شيئاً. كانت جدتي امرأة قادرة على الشفقة والقسوة في آن واحد. عند بداية تفتح أنوثتي كان من الضروري بالنسبة لها أن تقوم باحتياطات تؤمـن لها أن لا يفلت زمامـي، وأن لا أجلب لها أيـة فضيحة تجر عليها مصائـب اجتماعية، لـذا كانـت تتفانى أمامي في تسـخيف فكـرة الأنوثة وتجاهلها، لأن أي مسلك غير قويم مني سيطعن في تربيتها لي، ويشكك في حرصها علـي. لكن رغم ذلك يمكنني القول أنهـا كانت تحبني نوعا من المحبة الكامنة التي لا تظهرها كي لا يفسـدني الدلال، ربما لا ينبغي علي لومهـا أبدا لأنها تعاملت معـي وفق المبادئ التي نشـأت عليها ولا تعرف غيرها. في الأوقات التي تكون عمتي فيها معنا في البيت، وتكون في تمام وعيها، غالبا ما نشـكل أنا وهي وحدة للفـرار من قبضة جدتي، كنا نتحايل عليها حتى تنام، ثم نسـرع في اسـتدعاء بنات الجيران للسهر معنا في الصالون مع التنبيـه عليهن بخفض أصواتهن، وفي أحيان أخرى كنـا نوهمهـا أننا عند إحـدى الجارات ثم نتسـلل خارج المبنـى كلية في جولة سريعة إلى أماكن مجاورة. لن أقول أن جدتي كانت لا تعرف تماما بتلك الهروبات الصغيرة، لكنها كانت تغض الطرف بذكاء أم محنكة.

كانـت أحلى الأوقـات معهـا عندما تكـون رائقة، وتحكـي لي عن أيامهـا في الضيعـة، وعن حب جـدي لها حيـن كان عمرها أربعة عشـر عامـاً، وكيف غارت منهـا كل البنات لأنهـا تمكنت من الـزواج منه لأنه كان وسيما والابن الأكبر لأحد وجهاء الضيعة. تذكر أيامها معه بكثير من

fb/mashro3pdf

الفخر، تحكي عن الأقمشة والفساتين التي كان يشتريها لها من بيروت،

والتي لا تتشابه مع ثياب النساء الأخريات في الضيعة، ثم وهي تحكي

ينقطع الحديث الجميل، فجأة عند موت جدي وانقلاب الزمن عليها،

وما تلا ذلك من أحداث قاسية بما فيها الحرب ومرض عمتي.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تموت البطلة التي لم أعرف اسمها في نهاية فيلم:
«SWEET NOVEMBER»

كما تموت "وينونا رايدر" في نهاية فيلمها مع ريتشارد غير:
«AUTUMN IN NEWYORK»

أُفضِّل النهايات المأساوية، ثم أحاول أن أقنع نفسي فيما بعد أن ما يحدث يتم على الشاشة فقط. القصص التي تنتهي برحيل البطلة وغرق البطل في أحزانه لفقدها أتأثر بها جداً.

البطلة هي التي عليها اختيار وقت الرحيل، أو هي التي عليها أن ترحل دوما قبل البطل، أستعذب رحيل البطلات وغيابهن في الحياة وعلى الشاشة.

كتبت اليوم في مدونتي عن موت البطلات في الأفلام، قلت إنني لا أستطيع منع نفسي من البكاء لحظة موت فاتن حمامة في فيلم (الحرام)، ولا حين كتمت بيدها صرخة وليدها منعاً للفضيحة، ثم تسيل دموعي مع العبارة التي تقال آخر الفيلم:

"وعاد عمال الترحيلة يعملون تحت السياط... وصارت الشجرة التي ولدت تحتها عزيزة ابنها الحرام مزاراً للنساء الباحثات عن الولد بالحلال".

حين كنت أذهب إلى السينما،أذهب سراً عن جدتي،في الأيام التي أتأكد من غيابها لساعات،أهرب إلى السينما،الأفلام تحملني إلى عالم آخر،إنها عقار سحرني بالنسبة لي.لن تصدق جدتي أنني أذهب وحدي

fb/mashro3pdf

إلى السينما لذا كنت أكذب عليها،حتى في زمن علاقتي مع محمدو لم أرافقه إلى السينما إلا مرة واحدة،كنت أخاف أن يراني أحد برفقته.خوف طبع في داخلي رغم أنني بت وحيدة الآن أتحكم في يومي بل وفي حياتي كلها.

* * *

هجرت محمدو بلا أي تبرير أو عذر، انقطعت عن زيارته، وعن الرد على اتصالاته. كنت أعد الأسباب التي تمنعني من مواصلة علاقتنا، أكررها على ذاتي عبر صفحة بيضاء على جهاز كمبيوتري وضعت لها اسم: "نهاية مبكرة". أكتب فيها أسباب فراقنا، كنت أعيد قراءة هذه الصفحة كلما أحسست برغبتي في التراجع، كلما أحسست بذاك الشغف والهذيان الذي كان يقودني إليه كل مرة.

بدا الأمر مرعباً بالنسبة لي حين عرض علي أن نظل معا، ظننتها دعابة، ضحكت عالياً، لكن ملامحه بدت جادة وحاسمة وهو يسألني عن مشاريعي في الحياة، وعن إمكانية ارتباطنا وسفري معه... يومها حكى كثيراً، قال إنه انفصل عن خطيبته، وأنه بإمكاننا البقاء في بيروت حتى تخرجي وحتى انتهائه من رسالة الماجستير، وفيما بعد ربما نسافر معاً، لم أكن أستمع للتفاصيل، كنت في حالة قصوى من الذهول لأنني لم أفكر يوماً أننا سنرتبط بعلاقة ممتدة، أو أن علاقتنا ستكشف على الملأ.

"ما هي مشاريعك في الحياة" سألني يومها.

ما هي مشاريعي في الحياة؟

فكرت بهذا الأمر وأنا أغادر بيته في ذاك اليوم.

لم أكن مثله.

fb/mashro3pdf

ليس لديَّ أهداف محددة في الحياة أناضل من أجلها. وليس عندي غايات أخطط لتنفيذها، لا أحلم بمهنة معينة، ولا أسعى وراء حلم بعيد... هذه الحقائق واجهت بها ذاتي بلا موارية دفعة واحدة وباعترافات متتالية لأنني اكتشفت أن كل ما أقوم به في حياتي كان يعوزه الشغف الحقيقي. دراستي "علم النفس" اخترتها لأن هند اختارتها ولأنني كنت أحب البقاء أنـا وهند معاً. خطوبتي مـن كامل تمت تحت إلحاح جدتـي... ثم أنا... أين كنت أنا وسط هذه الخيارات المصيرية...

قـرار البدء فـي علاقتي مـع محمدو، ثـم انتهائها، هوايتـي في تتبع حياة المشـاهير والكتابة عنها، ثم الغوص في عالم الإنترنت والبحث فيه عـن أمور أحببتها لكنني لم أفسـح لهـا مجالاً في ذاتي...كمـا لو أنه حبا مخفيا عن الأعين لا أستطيع الجهر به.

* * *

أطفـأت جهـاز التلفزيـون وقـررت النـزول مـن البيـت والذهـاب إلـى محل فـي الشـارع المجاور يبيـع سـيديهات الأفلام الجديدة بسـعر رخيص،أفـلام مهربة يتم نسـخها وبيعها على سـيديهات قبـل أن تعرض على شاشة السينما.

السيارات في الشوارع ترفع أعلام البرازيل، ألمانيا وإيطاليا...

كنت أفكر فـي هذه الثـورة التي تسـببها مباريـات كأس العالم بين الشبان والشابات.

هل صحيح بأننا جيل بلا أهداف واضحة، بلا غايات كبرى نسـعى إليها؟

فـي الجامعة قـال لي مرة د.عـادل المحاضر في مـادة "علم النفس العيادي" إن جيلنا أميركي تماماً في كل شـيء، بينما جيلهم أوروبي، قال

fb/mashro3pdf

إن جيلنا يقلد الأسلوب الأميركي في المعاش اليومي والسلوكي.

"شوفي كم كلمة أجنبية بتقوليها باليوم، شوفي الأكل اللي بتاكليه، والقهوة اللي بتشربيها... كم مرة بالأسبوع بتاخدي وجبات سريعة، شوفي السينما، الأغاني، الأزياء، كل شي بحياتكم بتصدره أميركا وإنتوا بتستهلكوه... على أيام جيلنا أوروبا كانت في الواجهة... على الأقل أوروبا حضارة... بس أميركا هيدي شو؟".

أفكّر في سندويشات الفيلادلفيا والفاهيتا، في الهامبرغر والهوت دوغ، البطاطا (الفرنش فرايز) وصلصة الكاتشب والمايونيز، القهوة الأميركية والأكسبريسو، البيبسي ومشروبات الطاقة. كنت أفكر أيضاً بالصور الجميلة التي تملأ رأسي، بل حياتي كلها، وقتي الذي يمر سريعاً، السينما التي تنتجها هوليود، الأفلام التي أحبها وتمنحني أوقاتاً من الفرح تتلاشى حتى ظهور فيلم آخر بالروعة نفسها ثم هناك الوجوه التي عشقت ملامحها والتي أبحث عن حكاياها عبر الإنترنت، وجوه وحكايا أتتبع مسار حياتها كي أشكل منها حكاية جديدة.

المحل مغلق، يضع لافتة أنه سيفتح بعد ساعة. فكرت بالتجول قليلاً في ضواحي المكان، أو السير حتى مطعم "خليفة" لأشتري سندويش فلافل، لكنني لم أجد في نفسي ميلاً لتناول الطعام.

سأعود إلى البيت إذن، في طريق العودة دخلت إلى محل الإكسسوارات وأدوات التجميل الذي يقع بالقرب من الكنيسة، اشتريت قلم أحمر شفاه، وعقدا من حجر أزرق مزيف يشبه حجر الفيروز، لكن لونه المشع الذي يشبه لوني السماء والبحر معا أشعرني بالبهجة، وتخيلت انعكاسه على قميصي الساتان البيج الذي أحضرته لي أمي من دبي.

fb/mashro3pdf

عبرت من أمام الكنيسة لانعطف نحو شارع بيتنا. بدت لي الكنيسة في هذا المساء غارقة في الصمت، لا يقطعه سوى زقزقة عصافير صغيرة تحلق فوق فضاء ساحتها الواسعة. قليلة هي الأيام التي سمعت فيها أجراس الكنيسة تتناهى إلى السمع، لعل أبرزها في ذاكرتي في ذلك الأحد المشمس منذ عامين تقريباً، حين زار المطران "بولس مطر" بلدة "حارة حريك" ليحتفل مع أبنائها بالذبيحة الإلهية، يومها عرفت أن هذه كنيسة"حارة حريك" هي كنيسة "ماريوسف"، حدث ذلك حين تسللت أنا ونجلا إلى الداخل لنستمع إلى القداس، كان المطران يصلي لرفع الظلم عن الناس في فلسطين والعراق.

لكن الآحاد تتالت بعد ذلك ولم اسمع جرس الكنيسة، هل قُرع ولم اسمعه؟ أم إنه لم يُقرع؟

كانت جدتي تحكي في بعض الأحيان عن السكان المسيحيين الذين غادروا في الحرب الأهلية، انتقلوا إلى مناطق أخرى، فيما هاجر إلى حارة حريك وإلى الضاحية الجنوبية كلها مهاجرون من الجنوب وبعلبك.

* * *

اليوم هو الأحد.

حين استيقظت صباحا تذكرت أنني حلمت حلماً تكرر من قبل. كنت أسير في الشارع حافية القدمين، أركض وأركض على الإسفلت الأسود، الشارع يزداد عرضاً، وأنا ألهث من التعب، الشارع غير نظيف أبداً، على جانبيه قمامة وأتربة ووحول تلوثه، أوراق محترقة، علب كرتونية فارغة، أعقاب سجائر مرمية بكثرة تشكل تلة صغيرة، زجاجات مكسورة، علب مثلجات مطعوجة، وفوق ذلك كله كان هناك جثث قطط

fb/mashro3pdf

وكلاب متعفنة، أشيح بوجهي عنها كي لا أراها... في نهاية الشارع تقف عمتي في منتصف الطريق تمارس العادة السرية، هي لا ترانـي أبداً... أنـا أراها فقط من بعيد، أحس بالخجل. في الحلم أحس بالخجل وعند الصحو أيضاً...

كابوس عمتي و الشـارع المتسـخ تكرر أكثر من ثلاث مرات، وأنا أركض للهرب منه، وكلما نظرت ورائي أجد أن الشـارع ما زال في أوله والطريق يمتد أمامي.

تقول لي هند إن الشـارع يشـير إلى حياتي، الشـارع هو الدنيا، وأنا اركض كثيراً من دون هدف محدد لذا لا أتقدم إلا قليلاً.

لكن لماذا أكون حافية في الحلم؟ أكثر ما كان يضايقني أنني أسـير حافية.

* * *

أرسلت لي هاديا رسالة على الخليوي، تطلب مني القدوم إلى بيتها لنشـرب القهوة معا لأنهـا لن تذهب إلـى العمل. كنت أحـس بالصداع، وبرغبة في الهرب من بيتنا، ومن جهاز كمبيوتري الذي غالبا ما سأستسلم إلى اللجوء إليه، والبقاء أمام شاشته لساعات طويلة.

قالـت لـي هاديا ونحـن نجلس فـي صالون بيتهـم الصغيـر مكررة حديثها السابق عن الوظيفة:

"لسه قدامك عشرين يوم، روحي قدمي الطلب وشوفي شو بيصير معك... محاولة، مجرد محاولة مش رح تخسري شي".

ـ هاديـا أنا الأشـيا اللي بجمعهـا بأرشـيفي بجمعها لأنـه أنا بحب هيك، مش علشان سبب معين... يعني مش عم خطط لشي".

ـ بعرف متأكدة من هالشـي بس ليه ما بتستفيدي من الموضوع، ليه

fb/mashro3pdf

ما بتحولي الهواية لعمل وهيك بتكوني عم تعملي شي بتحبيه".

"ما بعرف... بخاف، ما بظن بيمشي الحال".

"جربي".

"أنا بكرة إجازة بروح معك إذا بدك".

"أوكي".

ارتفع صوت أم هاديا من المطبخ تنادي على ابنتها الصغرى نجوى لتشتري لها "كيلو بندورة علشان بدها تكمل الطبيخ".

نجوى التي لـم تتجاوز الرابعة عشـر من عمرها كانت تسـمع نداء أمها ولا ترد تقف بثبات أمام شاشـة التلفزيون تتابع حواراً لفنانة صاعدة أصدرت أول "فيديو كليب" لها.

يرتفع صوت الأم مرة أخرى أكثر قوة مكرراً النداء ذاته:

"ولي يا نجوى شو مش عم تسمعي قومي جيبيللي كيلو بندورة من عنـد الخضرجي اللي بأول الشـارع بدي كمل الطبخة قبـل ما يجي بيك من المحل الساعة رح تصير خمسة وما خلصت الطبيخ لسه".

ترد نجوى ببرود: "إيه طيب جاية..".

ثم تتابع النظر إلى مقتطفات من الفيديو كليب الجديد.

يدخل رامز الذي يصغـر هاديا بثلاثة أعوام. فـي يده قميص أبيض يسألني بسرعة وهو يلتفت نحو أخته هاديا:

"كيفك ندى؟"

"منيحة الحمد لله".

يقول لهاديا:

"بدي تكويلي هيدا القميص قبل ما تنقطع الكهربا، سـامعة أمك

fb/mashro3pdf

عـم تتخانق مـع حالهـا، ما فـي أطلب منها شـي، نـدى مـش غريبة رح جيبلك المكواية لهون، ضربتين على السريع، لازم أنزل عندي موعد مع الشباب".

لم ينتظـر الحصول على رد، أسـرع بإحضـار "المكـواة" الصغيرة، وشرشف سميك وضعه عل الأرض كي تتم عليه عملية الكي.

"وين زين، بعده ما رجع؟"

"زيـن نايم، نهاره ليل وليله نهار، هلق الشـركة اللي عم يشـتغل فيها صايرة تعلق الإعلانات بالليل، قال شو علشان الناس الصبح تتفاجئ بالإعلان إنه معلق".

"صار لي كم يوم ما شفت زين، كتير مشتاقتله".

"هو كمان مبارح سألني عنك، خبرته إنك رح تقدمي على الفضائية لإعداد البرامج، كتير انبسط".

كانت هاديا تتحدث معي وتقوم بضربات سريعة على قميص رامز. دخلت أمها وفي يدها صينية عليها ثـلاث فناجين من القهوة، رحبت بي وهي تضع الصينية، ثم انسـحبت إلى الداخل لتعود وفي يدها "أرغيلتها" الصغيرة.

سألتها هاديا بعصبية:

"هلق معقول بدك تأرغلي هون...".

أحسست بالحرج، ردت الأم بحدة أيضاً:

"وين بدك أقعد، يعني هالبيت في 300 غرفة، الغرفة اللي جوه نايم فيها خيك، والتانية هلق رح يجي بيك من المحل وينام فيها".

بدا لي وجه الأم حنطي اللون شـديد البؤس وسط الصالون القديم

fb/mashro3pdf

المتهالـك الـذي بهت لونـه "الخمـري" وصار ميـالاً إلى لـون "البطيخ" الفاتـح، صور آيـات قرآنية ودعـاء "كميل" علـى الجدار، وإطار خشـبي وضعت فيه آخر صورة لابنها حسـين التُقطت له عندما كان عمره تسـعة عشر عاما أي قبل أشـهر من وفاته. في الزاوية طاولة متوسطة الحجم لا تبين معالمها لأنها مختفية تماماً خلف غطاء من اللون البني، وضع عليها التلفزيون الذي يعتبر الشيء الجديد فقط في الغرفة.

كنت أحس بتعاطف مع الأم وأنزعج من الأسلوب الذي تتعامل به هاديا معهـا. كانت حياة تلك المرأة سلسـلة من النكبـات تحاول الهرب منها بالتدخين والثرثرة وموجات التدين التي تأتيها بين مد وجزر. فالزوج فقد ساقه خلال الحرب منذ عشـرين عاماً، وصار يتكل في معيشته على "محـل" يبيع فيه المـواد الغذائية من الأجبان والألبـان والمعلبات،إلى الشامبوهات والمبيدات الحشـرية وبعض الأدوات المنزلية. أما مسؤولية الأبناء الخمسة فكانت تقع على "أم حسين" زوجته وأم أولاده الخمسة.

تلـك المرأة التي تجد عالمهـا الممتع في دخـان "أرغيلتها"، والتي تنهمك في إعدادها مرتين أو أكثر في اليوم، حسـب قـدوم الجارات في الصبح أو العصر.

الابن الأكبر "حسين" مات في عام 1996 خلال أحداث قانا، كان في زيارة عند بيت عمه عندما سقط صاروخ كبير على البيت فتحول كل ما فيه إلى أشـلاء. وبدلاً من أن يعود حسـين إلى أسـرته بعد يومين، لم يرجع منه سوى أشـلائه التي جمعت في كيس أسود ليتم وضعها في قبر لتذرف الأم دموعها فوق ترابه.

لم تكن الأزمـات المالية تنتهي في بيت هاديا، لأن مدخول المحل لم يكن يكفي لتغطية احتياجات الأسـرة. "زين" توقف عن الدراسـة بعد

fb/mashro3pdf

التحاقه بالجامعة، كان مشتتا بين مساعدة أبيه عصراً في المحل، وبين التفكير في البحث عن عمل يؤمن له دخله الخاص. توقف عن الدراسة وتنقل في عدة مهن، مندوب مبيعات لشركات تبيع العطور الرخيصة، الولاعات، والساعات والهدايا، ثم سائقاً لأحد الشخصيات المهمة، فيما بعد ساعدته تلك الشخصية المهمة ليعمل مراقباً على إعلانات الطرقات.

انسحبت الأم إلى المطبخ فقالت لي هاديا:

"شايفة الكرنفال المستمر اللي أنا عايشة فيه... أوف... أحياناً بدي نام ما بقدر نام...".

قلت:

"معلش شو بتعملي يعني... أنا رح قوم هلق، بشوفك بكرة".

"طيب بكرة على العاشرة برنللك على الأنترفون، بتنزلي لنروح عالمشوار...".

دخلت أم هاديا، وبفضولية ربات البيوت العاطلات سوى عن تبادل الثرثرة سألتنا بحزم:

"لوين المشوار؟"

ردّت هاديا باقتضاب:

"ندى بدها تقدم على شغل وأنا رايحة معها...".

تتالت الأسئلة من جديد... وين... وكيف ومتى... ثم انهمرت سلسلة من الأدعية بالتوفيق وحسن الحظ لأني "بستاهل كل خير".

في اليوم التالي ذهبنا أنا وهاديا لتقديم الطلب، استقبلنا الموظف بابتسامة آلية يكررها مع الجميع، ثم قدم لي أوراقا لكي أكتب فيها المعلومات التي تتعلق باختصاصي الجامعي، بمهنتي الحالية، وتفاصيل

fb/mashro3pdf

كثيرة أخرى من ضمنها قدرتي على السفر.

ابتسـم لنا الموظف مـرة أخرى ابتسـامته المكرورة، أخـذ الأوراق

مني، على وعد بالاتصال.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

مرّ أسبوع على آخر كابوس.

استيقظت هذه الليلة في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، كنت أفرّ راكضة بعيداً وإحساساً بالشلل يربط قدمي إلى السرير.

أنا وهند نسير معاً نخرج من السينما ثم نسير في شارع موازي للبحر نركض ونركض ثم فجأة ينقلب الطريق أمامنا إلى غابة شائكة تحجب أشعة الشمس، ونحن نركض على أرض رملية. نقع، ثم نقف من جديد لنعاود الهرب، ثم فجأة أرفع رأسي إلى أعلى أسمع صراخ أطفال معلقين على الشجر من أرجلهم، أطفال لا يتجاوز أعمارهم عاماً واحداً، وكلما سرنا أكثر تضاعف عدد الأشجار المعلق عليها الأطفال بل صارت جثث الأطفال تملأ جنبات الغابة أيضاً، وبين الأطفال الموتى أرى بنتا أكبر من بقية الأطفال في الثانية من عمرها وما زالت حية، أطلب من هند أن نأخذها معنا، أسحبها بسرعة ونتابع الركض، تضيق الغابة لتصير كالممر المعتم الذي لا يتسع إلا لمرور شخص واحد، نعبر بسرعة وأنا أسحب البنت في يدي والبنت تقول إنها عطشانة، ثم في نهاية الممر تتسع الغابة، تنفرج عن مساحة تشبه ملعب كرة قدم، وفي دائرة الاتساع تلك جنود كثيرين محملين بالسلاح يجلسون القرفصاء، وإلى جانبهم عدد من الأطفال الكبار قليلاً، يطلب الجنود من الأطفال العبور واحداً واحداً، وما إن يعبر أحد الأطفال حتى يسددون إليه طلقة في ساقه تجعله عاجزاً عن السير فيسقط على الأرض ويصرخ من شدة الألم، يتكرر الأمر ذاته مع كل طفل، نشاهد عملية القتل ونحاول العودة

fb/mashro3pdf

إلى الـوراء عبر الممر الضيـق الذي يضيق أكثر بحيث لا نسـتطيع عبوره عرضاً أو طولاً.. نحاول الركض.. عبثاً... كنـا محاصرين ثلاثتنا... أنا.. وهنـد.. والطفلة في يدي، ثـم فجأة التفت حولي فأكـون وحيدة، الطفلة غيـر موجـودة، وهنـد ابتعـدت عنـي وأنا أحـاول الركـض لكن سـاقاي عاجزتـان عن الحركة، شـلل يربطهمـا إلى الأرض، وكما لـو أنني التقط أنفاسي من ركض لم يحدث.

استيقظت من الكابوس وإحساس بالثقل يشد ساقي إلى الأرض.

هلع يمسك أنفاسي.

أفتح عيني.. أحدق في أثاث غرفتي، أشرب بعض الماء.

ما حدث كان مجرد كابوس، علي أن أهدأ قليلا،

تداهمني التباسات من أفكار متشابكة تشبه الغابة التي كنت فيها.

ينتابنـي إحسـاس بأنني لا شـيء وأنه لا مـكان لي في هـذا العالم.. لسـت سـوى عابرة، حياتي كتلة فراغ صماء، ينقبض قلبي، وينفتح داخلي على هاوية سـوداء مرعبة من الشؤم، اعتصار يلوكني قطعاً ثم يلفظني إلى العتمة.

إنه الليل...

أكثر ما يخيفني العتمة، والصمت...

كلاهما خانق.. ولا مفر لي..

بأي يقين أتشبث لأواصل الهرب وأستمر بالحياة؟

مـا هـي الثوابت فـي حياتي التـي تمدنـي بالمقاومـة التـي تدفعني للاسـتمرار، لا شـيء يقيني في أيامي أكثر من أشـباح الليل المرعبة التي تزورني في سـاعات العتمـة... وهاوية تفتح فوهتها وأنـا أقف عند حافة تؤكد أن لا ثوابت عندي، فأعود إلى دوراني الفارغ حول ذاتي.. حولها،

fb/mashro3pdf

أعبث في فضاء افتراضي، أبتدع عوالم موازية تكبح جماح قلقي.

* * *

قـررت مغادرة البيت. سـأذهب للتسـجيل في مدرسـة لتعليم قيادة السيارات، وعدتني أمي بشراء سيارة صغيرة لي قبل سفرها هذه المرة.

ما إن خرجت من مدخل البناية إلى الشارع تسللت إلى أنفي رائحة «مناقيش زعتر» من فرن عبدو، أحسست بجوع خفيف، سأشتري منقوشة إن لـم يكن هناك ازدحـام. اقتربت من الفرن، وجـدت «نجلا» تقف إلى جـوار زوجها عبدو عند بـاب الفرن كان يبدو عليها التوتـر، عبدو يتكلم بعصبية، اقتربت منهما قلت تخفيفاً للتوتر:

«صباحو، شو بكن عند هالصبح..».

«أهـلاً نـدى». قالها عبـدو وهو يتحـرك مبتعـداً إلى داخـل الفرن، أمسكتني نجلا من يدي وقالت:

«تعي نضهر من هون ندى... كتير جو الفرن شوب».

«طيب كنت بدي جيب منقوشة».

وكما لو أنها لم تسمعني، أمسكتني من ذراعي برفق وسألتني «لوين رايحة؟»

«رايحة سجل بمدرسة تعليم سواقة السيارات».

«يعني ضروري تروحي هلق».

«لا مش ضروري هلق، ليه في شي...».

«إيه فيي... بدي أحكي مع حدا رح طق».

أنت وين كنت رايحة قبل ما فوت أنا على الفرن» سألتها.

«كنت بـدي زور بيت خيي علي وعبدو ما قبل يخليني روح، مرت خيـي عاملة صبحية اليوم، وعازميتني... وما قبل... بيقول إنه مرت خيي

fb/mashro3pdf

ما بتعجبه مزنطرة كتير..».

«بس هيك؟»

«إيه بس... طيب وين بدك نروح هلق، وشو رح تقولي لعبدو؟»

«رح قلله إني رايحة معك تسجلي بمدرسة السواقة وبعدين منقعد بشي محل».

«وبلكي ما قبل؟»

«بيقبل... مش رح يحكي شي إذا قلتله إني رايحة معك».

ابتعدت نجلا إلى داخل المحل، اقتربت من قامة عبدو الضخمة، أحنى رأسه لتوشوشه في أذنيه لوجود بعض الزبائن قربه. يصل رأس نجلا إلى نصف ذراع «عبدو»،بدت لي أكثر نحولاً وصغراً وهي تقف بجواره، وترتفع على رؤوس أصابعها لتهمس في أذنه بعض العبارات، هزّ رأسه إلى أسفل إيماءة بالموافقة وكما لو أنه طلب منها أن لا تتأخر.

تزوجت «نجلا» من عبدو بعد انتهائها من الدراسة الثانوية، وفشل قصة «حب» مع شاب ثري كانت تأمل أنه سيحقق لها نقلة اجتماعية تستحقها. لكن حين أعلن خطوبته على فتاة أخرى تراجعت ثقة نجلا بمؤهلاتها التي تعتمد في جزء كبير منها على شكلها الخارجي، ثم في خطوة جنونية وافقت على الزواج من ابن جيراننا «عبدو» عملاً بنصيحة أمها القائلة: «روحي للي بيحبك مش للي أنت بتحبيه».

كانت نجلا هشة الجسد، هشاشة لطيفة تضفي على ملامحها رقة محببة بحيث تبدو عظامها عند الخصر لينة كما لو أنها وردة من الممكن قطفها بسهولة لو وضعت يداً واحدة عند وسطها ثم جذبتها إليك، عيناها برموش كثيفة يختلط فيهما مزيج من اللونين الأخضر والعسلي، فيهما نظرة تنم عن شرود دائم ورغبة بالفرار، عظام وجنتيها بارزة مثل الفتيات

fb/mashro3pdf

المخصصات للإعلان عن مستحضرات التجميل، فمها كبير قليلاً مقارنة مع حجم الوجه، شعرها فاتح اللون طويل خصلاته مقصوصة بشكل غير متساو، غالباً ما تتركه نجلا منفوشاً من غير تسريح. يتشدد «عبدو» في مراقبة ثياب نجلا، تعليماته واضحة المطلوب ثياب واسعة وبأكمام طويلة تغطي كامل ذراعيها، كان قد طلب منها في بداية الزواج وضع «الحجاب» لكنها رفضت بشدة، فرضخ مكرها لقرارها. لم تنجب نجلا أطفالاً، ولم يكن يبدو عليها الضيق من ذلك.

زوجها عبدو الذي له جسد مصارع وقلب طفل، كان ابن جيراننا أيضاً، وكان يحب «نجلا» منذ الطفولة، في حين هي لم تكن تصده ولا تبادله الحب، ظلت علاقتها به مناورة من شد وجذب، كانت تحتجز حبه كبديل تستخدمه في حالة الضرورة القصوى. وهذا ما حدث.

أوقفت «نجلا» سيارة وقالت للسائق:

«المنارة... عند «بالاس»».

استغربت أنها لم تسألني عن رأيي في المكان الذي نتوجه اليه، حين صعدنا إلى السيارة قالت لي:

«حابة روح على البحر».

قلت : «إيه بس هلق الدنيا شوب، البحر أحلى عند المسا، كنا نزلنا على الحمرا أحسن، وإذا ما بدك الحمرا على الداون تاون».

لم ترد «نجلا». ارتفع رنين هاتفها الخليوي. نظرت إلى الرقم ولم تجب. عاود الرنين، فأقفلت الخط، وحين رنّ مرة ثالثة كان السائق قد فتح جهاز الراديو بصوت مرتفع، حينها رددت باختصار قائلة: «بعد شوي بحكي معكن..».

نظرت إليَّ لترى ردة فعلي، لم أتكلم فقالت هي: «هيدي آلاء بنت

fb/mashro3pdf

خيي أمها بعتتها تتصل فيي لتشوفني ليه ما جيت».

«طب ليه ما خبرتيها».

«خلص.. شو بدي خبرها أنه عبدو ما بده إياني روح لعندهن».

لم أعلق. طلبت من السائق أن يخفض صوت الراديو عن الأناشيد الحماسية التي كان يستمع إليها.

«بتعرفي ندى شو أحلى شي بالنسبة لعبدو..».

«شو؟»

«إنه يتسمع على نشرات الأخبار، ويقعد يعد القتلى والجرحى في العراق من كلا الطرفين، بقصد العرب والجنود الأميركان، وبعدين يجمع ويطرح ليشوف مين مات أكتر».

داهمتني حالة من الضحك و»نجلا» تستفيض في وصف زوجها وهوايته خاصة حين يكون والده في زيارته الأسبوعية عندهم، حينها يدخل الأب والابن في منافسة حول من استمع أكثر لنشرات الأخبار وكان مصيباً في إحصاء عدد القتلى والجرحى..

بعد أن جلسنا في مقهى «بالاس» أمام البحر، عاودني إحساس الجوع الذي نسيته مع حكايات «نجلا» طلبنا نسكافه وإفطار خفيف. ارتفع رنين هاتف «نجلا» مرة أخرى فقامت إلى الداخل قائلة إنها ستذهب إلى الحمام.

عندما أحسست أنها تأخرت كثيراً، قمت من طاولتي سرت عدة خطوات أنظر إلى أين ذهبت، وجدتها تقف عند مدخل المكان مع شاب في مثل سنها أو يكبرها ببضعة أعوام. بدت منهمكة في الحوار معه. عدت وجلست إلى الطاولة بانتظارها. حين عادت بدت ملامحها أكثر غموضاً وحذراً وهي تبرر غيابها بأنها التقت بأحد معارف «عبدو».

fb/mashro3pdf

كبرت أنا و"هاديا" و"زين" و"كامل" "ونجلا".

"هاديا" كانت في مثل سني، "زين" شقيقها يكبرنا بعامين أو ثلاثة، وكذلك "كامل" الذي كان صديق طفولة وصار خطيبي لمدة عام تقريباً. "نجلا" كانت تصغرني أنا وهاديا بعدة أشهر.

جميعنا كنا نسكن في مجمع سكني واحد.

هاديا وزين من أقارب جدتي، وكذلك كامل ابن عمهم.

حدثت خطوبتي من "كامل" بسهولة. كل ما في الأمر أن أمه فاتحت "جدتي" صديقتها في الصبحيات وجلسات تدخين الأرغيلة، عرضت عليها أن تتم خطوبتنا لأني "عاقلة ومهذبة وبنت ناس أوادم، ومش رح تلاقي أحسن مني لابنها، ولإني تربية ستي". ما يرادف عبارة مضمونة السير والسلوك.

قالت جدتي أنه الأفضل بالنسبة لوضعي أن أقبل بتلك الزيجة حتى إن كنت لا أحب "كامل". قالت لي بشكل مباشر وبصوت حنون ومتعاطف، نادراً ما تستخدم تلك النبرة، وكما لو أنها وجدت الضمان التام لمستقبلي.

"يا ستي مش يمكن بكرة تحبي واحد تاني ما منعرفه، وأهله ما يقبلوا فيكي... رح يقولوا هيدي أمها وبيها مطلقين، ليش تطلقوا الله وأعلم شو في". سكتت جدتي وتابعت بصوت كسير قائلة: "وأكيد كمان رح يعرفوا بحكاية عمتك رجاء".

* * *

fb/mashro3pdf

الطفولة السعيدة وهم كبير.

وهم نستمر بالتساؤل عنه طوال مراحل ما بعد الطفولة.

في البداية كنت أفكّر أن تعاستي الطفولية حدثت بسبب غياب أمي، كنت مقتنعة بهذا، لكـن هاديا كانت تؤكد لي أنها هي أيضاً ترى طفولتها تعسـة رغم وجود أمها وأبيها معهـم، تقول لي هاديـا، إن أي حرمان هو الذي يسـبب التعاسـة. حرمان العاطفة، المال، إحسـاس الفقد، الغياب، أشـياء كثيرة تتضافر لتخلق تعاسة لا نعيها في وقتها بسبب جهلنا، ثم مع مرور الوقت نكتشف الفراغ الذي سببته.

في صغري كنت أتسلق شـجرة التوت، عندما نذهب لزيارة أقارب جدتي في الجنـوب، "التوتة الحمرا" كانت هدفاً دائماً لي لتسـلقه، كنت أُقنـع أولاد وبنـات أقـارب جدتي بـأن نقوم بتسـلق أغصـان التوتة حتى نصل لأعلى غصن.

متعة الوصول لأعلى غصن كان بمثابة الطيران إلى أعلى، الانعتاق مـن رؤيـة الأرض، وكل مـا يربطني بهـا. عندما كنـت في الثانية عشـر، سـقطت من أعلـى التوتة وكسـرت يدي، وظلـت ملفوفة بربـاط الجبس ستة أشهر، وفي المدرسة كنت أذهب بيد يسرى مربوطة إلى عنقي، رغم تفوقي في دروسـي الذي لم يؤخره مرضـي، إلا أنني كنت أحس بخجل كبيـر من نفسـي، ومـن بنطالـي الكحلـي، وبلوزتـي الرماديـة، وجاكيتي البرتقالي.

الفتيات تعاطفن معي وسـاعدنني في دروسي، صرن أكثر وداً معي وألفة، ورغم أن حادثة سـقوطي هذه قد قربتني من بنات الصف إلا أنني منعت بتاتًا من تسلق أغصان "التوتة" التي دخلت لائحة الممنوعات.

في عمر الرابعة عشر تغير شكلي، زاد وزني كثيرا، أصبح 75 كيلو

fb/mashro3pdf

غراماً، بطـول يصل إلى 160، كمـا ظهرت البثور فـي وجهي، وصارت بشرتي تشبه حبة الفريز محمرة ومليئة ببثور صغيرة..

في المدرسـة أحس بالخجل مـن الألوان التي أرتديهـا، ومن ثيابي التي تشـتريها جدتي لي من "البالـة"، كانت تحتفظ بالثياب التي ترسـلها أمي لأيام العيد والمناسـبات. أحس بالخجل مـن أحذيتي ما زالت لدي عقدة الحـذاء حتـى الآن. جدتي كانت تختـار لي أحذية غريبة الشـكل، كبيـرة، مدببـة، أقـرب إلـى أحذيـة الأولاد، يخضـع اختيارهـا لهـا وفق صلابتها، إذ علي أن أمضي الموسم كله في هذا الحذاء. أنظر إلى أحذية زميلاتي التي تتميـز بالجمال والأناقة، هل ينبغي إذا كان الحذاء جيداً أن يكون قبيحاً. لكنني لم أكن أستطيع الاعتراض.

كان من المحظورات ارتداء الثياب الجديدة في أيام الدراسة، تقول لي: "إنتي رايحة تتعايقي بالتياب أو تتعلمي". لا يمكنني نسـيان أنها يوم صنعت لي ثقباً في أذني لأضع الحلق استعانت بجارتنا "أم فؤاد" لتصنع لي ثقباً بالإبرة، وتضع في أذني خيطاً مدة أسبوع.

تغيـر هـذا الوضـع عندما صـارت أمـي ترافقني في جولات شـراء وتشتري لي ثياباً جديدة، لم تكن تسأل جدتي عما تفعله بالمبلغ الشهري الذي ترسـله لها إن كانت لا تنفقـه عليَّ إذن... كان هنـاك اتفاق ضمني بينهمـا على عدم السـؤال. منعتني أمـي من لبس البلـوزة الجزرية اللون، والبنطلون الأسـود القبيح، والحذاء ذو الكعـب المدبب، قالت لي يومها إنني أبدو مثل "عاملات النظافة في المستشفيات". أجرت أمي تعديلات جوهرية على مظهري، وتسـريحة شـعري، اصطحبتني في جولات شراء إلى أماكن لم أكن أعرف أنها موجودة في بيروت، معها اكتشـفت مناطق أخرى خارج الضاحية الجنوبية، رأيت وجهـاً آخر للمدينة لم أجرؤ يوماً

fb/mashro3pdf

على اكتشافه رغم معرفتي بوجوده. معها عرفت محلات (آ. بي.سي) في الأشرفية، ومحلات الثياب في شارع مار الياس، وشارع الحمرا.

لكن رغم كل ما تفعله أمي معي ظلت مشاعري نحوها متناقضة، ومبلبلة، طريقة العطاء التي اختارتها لم تكن كافية لتقليص المسافات بيننا. هناك فجوة لا تردم. كنت أخجل من نزع ثيابي أمامها، أو من الحديث في أي موضوع حساس، لو حدث ذلك ينتابني إحساس الوجود في غابة شائكة، كلما توغلت في دخولي لها، لا يمكنني الخروج لذا كنت أتراجع بعد عدة أمتار.

* * *

حين صار عمري سبعة عشر عاماً، بدأت بخسارة الوزن، كنت أعرض جسدي لضربات قاسية من الحرمان، وأبتلع سراً على الريق حبوب تقطع الشهية وتقضي على رغبتي في أكل الشوكولا والشيبس والكرواسان. كنت قد كبرت وصار بإمكاني الاحتجاج على قائمة الممنوعات التي تضعها جدتي. لكنني بقيت أكره أيام العيد، أكره المناسبات كلها التي يجتمع فيها الناس، أيام العيد تسبب لي إحساساً بالقهر، كل ما كان يمكنني نسيانه خلال العام، يلح علي عندما يزورنا الناس أيام العيد ويظهرون شفقتهم علي، ممتدحين جدتي وحسن تربيتها لي. إحداهن تقول لها:

"والله يا حجة إنتي شفتي أيام أمر من زوم الزيتون، حرب وشحار وتعتير، وترابيتك للبنت اللي أمها تركتها وما سألت".

وكانت جدتي تهز رأسها بأسف، وتكسو ملامحها حكمة القديسين قبل أن تنطق كلماتها الحكيمة" إيه في الله... ما بيضيع عنده شي".

ظللت أكره ليلة رأس السنة، التي يحتفل فيها الناس ببدء عام

fb/mashro3pdf

جديد، لكنني كنت أنام باكراً قبل الساعة 12 لأن جدتي تطفئ التلفزيون قائلة:

"قومي شـوفي دروسك، أو نامي شوي، أحسـن من أكل هالهوا الفاضي".

لكن دائماً كان في داخلي حسـرة على ليلة الميلاد لأنها ظلت ليلة مجهولة بالنسبة لي لا أعرف طقوسها، هذه الليلة التي يتم الاستعداد لها منذ مطلع "ديسـمبر"حين تتزين المحلات بشـجر الميلاد، ويحضر اللون الأحمر في أزياء بابا نويل وكيسـه وهداياه، ونبتة "قلب العاشق" الحمراء الصغيرة، تلك النبتة التي أهديتها لمحمدو، وظلت تزين شـقته لأكثر من شهرين.

* * *

الآن أدرك أنه ليس من السـهل على طفلة أن تنسى زيارات "مأوى العجزة". لكن رغم ذلك لم أحـس بالحقد على أحد. لم أكره أمي لأنها تركتني وعمري خمسـة أعـوام لتربيني جدتـي، ولم أكره أبـي الذي كان يشـرب مسـاء كل يوم ثلاثة كؤوس من العرق الوطني. أبي الذي أمضى حياته كلها في ثلاثة أمـور: "عمله في مكتب البريد، والصمت، وشـرب العرق".

كان يعـود مـن عمله فـي الثالثـة ظهراً، يدخـل إلى حجرتـه يتناول الغـداء فيها، ثـم ينـام القيلولة، يسـتيقظ قبيل المغـرب بقليـل، ينزل إلى المقهـى ليلعـب الطاولـة والـورق، يعود مسـاءً ليتناول عشـاءه ويشـرب كؤوسـه الثلاثة. لم يكن يسـكر، كل ما كان يفعله أن يخـرج عن صمته، العرق يسـاعده على الكلام. وفي كثير من المـرات كان يحكي قصته مع أمي، وكيف تركته.

fb/mashro3pdf

كان يشرب العرق ويشكو لله هجر أمي قائلاً:

"منها لربنا اللي كانت السبب... ضلت تلعب بعقلها حتى خلتها تترك البيت وتتركك يا ندى... كنا عايشين سوا مبسوطين... وكان زمانها هلق معك عم تربيكي".

عندما كبرت كنت أفكّر ألهذا الحد أحبها؟

وبهدف دفعها للاتصال به كان يمنعني أحياناً من الذهاب لرؤيتها حين تأتي من السفر، كان يأمل أن تتصل به وتستعطفه ليسمح لها برؤيتي لكن كل ذلك لم يحدث أبداً لأن أمي تكتفي بالاتصال بجدتي وتسوية وقت اللقاء بي... خلال مرض أبي حين أصاب ظهره "ديسك" كان راتبه الشهري يذهب لنفقات العلاج، وكنا نعيش من المبلغ الذي ترسله أمي إلى جدتي، لذا لم يكن بمقدور جدتي أن تسيء معاملتها وتخضع لنزوات أبي حين يحرضها على منعها من رؤيتي، كانت تصرخ في وجهه قائلة:

"والله أنت واحد مفتري، لو ما المصاري اللي عم تبعتهن ماجدة من ويـن كنا رح نعيش لم أنت مرضت، ما شفت كيف خيك ما سأل فينا، وأختك مرمية بالمستشفى بدها هالقد مصاري للعلاج".

في البداية لم أكن أعرف من يقصد أبي حين يقول "ضلت تلعب بعقلها" اتضح لي فيما بعد أن المعنية هي خالتي "وفاء"، خالتي التي لم أتعرف إليها إلا حين صارت أمي تأتي من السفر وتصحبني لزيارة خالاتي وخالي الذين يسكنون في البقاع متوزعين ما بين "بعلبك" و"أبلح".

كنت أتخيل خالتي "وفاء" من كلام أبي عنها امرأة شريرة حقودة لكنني حين التقيت بها وجدت أمامي امرأة مقهورة حزينة تميل إلى الصمت، ما زالت موجوعة من حادثة قتل زوجها الغامضة والتي لم

fb/mashro3pdf

تعرف من ارتكبها.

تحكي لي أمي أن خالتي وفاء كانت منذ أول زواجها في أواخر السبعينات مستقرة في "أبو ظبي" كان زوجها يعمل مهندس بترول، تزوجها واصطحبها معه إلى هناك، كانا متحابين جداً أنجبا بنتين وولداً ثم بعد سبعة أعوام من الزواج وفي أحد الصباحات وبعد أن نزل زوج خالتي إلى العمل لم يمض على نزوله أقل من ساعة حتى جاء اتصال مجهول يقول لخالتي أن تنزل إلى أسفل المبنى لتنظر إلى زوجها في أسفل العمارة. عند المدخل تماماً وجدت زوجها جثة ملقاة على الأرض ودمه ينزف، لا حياة فيه.

لم تعرف من الذي قتله أو لم قتل، لأن أقاويل كثيرة دارت حوله، البعض قال أنه عقد صفقات مشبوهة واختلف مع شركائه فقتلوه، وآخرون قالوا إنه كان على علاقة مع امرأة متزوجة وأن زوجها اكتشف العلاقة فقتلها وقتله، فيما رأي ثالث يقول إن الحكاية فيها "ثأر"، وإن قاتله رجع إلى الضيعة في "بعلبك" وصرّح أنه الفاعل انتقاماً لمقتل أخيه على يد والد زوج خالتي، لكن لم يؤكد أحد هذه الحكاية تماماً.

لم يكن هناك قصة تطغى على الأخرى إذ لكل قصة من القصص الثلاثة آراء مؤيدة ومعارضة، وفي الوقت الذي مالت أمي لتصديق الرأي الثاني القائل بوجود "امرأة" أخرى وعلاقة غامضة في حياته، كان خالي "أنيس" ينفي تماماً هذا الاحتمال ليرجح الاحتمال الأول القائل بأنه عقد صفقة غامضة مع أحد التجار أدت إلى قتله. في الوقت الذي تنفي خالتي "وفاء" نفياً قاطعاً القصتين فلا هي تؤيد وجود "خيانة" مع امرأة أخرى لأنها أدرى بزوجها، ولا هي تشك للحظة أن من الممكن لذاك الزوج والأب الحنون أن يدخل مالاً حراماً إلى بيته. لكن خالتي أيضاً

fb/mashro3pdf

نفت تماماً معرفتها بوجود "ثأر" بين عائلته وأية عائلة أخرى.

لم تتزوج خالتي "وفاء" وتفرغت لتربية أولادها، وتحولت مع فجيعة الحزن والفقد إلى كتلة صامتة متحركة. لم تتغير إلا حين غزاها منذ أعوام قليلة شغف ديني قوي صار يدفعها للكلام حول الدين والخروج من البيت لحضور "دروس في الدين" أيضاً أو للمشاركة في أعمال البر والإحسان. ارتدت العباءة السوداء وأسدلت غطاء على الوجه، ولم تكتف بذلك بل فرضت الأمر على ابنتها الصغرى مريم التي كانت تعيش معها، ثم فرضت على مريم أيضاً خطوبة أحد الشبان المتدينين ابن إحدى صديقاتها اللواتي تعرفت إليهن في رحلة الحج وعقدت مع تلك السيدة اتفاقاً على صفقة الزواج الغيابي بغض النظر عن رضى ابنتها.

* * *

fb/mashro3pdf

"الشغف هو إحراق الحب القلب مع لذة يجدها".

"الشغاف غلاف القلب أو حبة القلب وسويداؤه".

ابن منظور

لسان العرب

«الشغف هو أن يبلغ الحب شغاف القلب».

ابن حزم

طوق الحمامة

مرّ أكثر من عام على نهاية قصتي مع محمدو.

لا أعرف حتى الآن السبب الحقيقي الذي دفعني بشغف نحوه، كنت أعرف أنه شغف مبتور وغير عاقل، لا يحمل سوى جموحي الشديد، رغم أن الخوف ساورني طويلاً قبل أن يتحطم رويداً رويداً. وقبل أن تقودني خطواتي إليه.

كان في الثلاثين من عمره، يعمل متدرباً في الأمم المتحدة.

شيء غامض يخلق بي حالة من الشغف لتأمل ملامحه الدقيقة المنحوتة على بشرته السوداء، وجهه المتعالي يشبه جلال الملوك. العينان مرسومتان ومسحوبتان بدقة في مساحة الوجه المثلث، أنف متوسط متوائم مع غلاظة الشفتين، عظام وجنتيه يغلفها طبقة رقيقة من اللحم يعلوها لمعان شفاف آسر.

ذاك الوجه كان يأخذني رغماً عني لأماكن مجهولة فأقع في أسره يوماً بعد يوم.

fb/mashro3pdf

صرت أعرف أن ترددي على المركز الثقافي الفرنسي لم يكن فقط للقراءة وتقوية لغتي، كنت أراقبه وأعرف مواعيد قدومه.

لقاؤنا الأول حدث في مكتبة المركز، كنت أمسك برواية لكاتبة فرنسية، وكان هو يقف بمحاذاتي أمام الرف المقابل، يمسك بيده رواية للطاهر بن جلون بالفرنسية أيضاً، أشار لي بسبابته إلى غلاف الرواية التي أمسكها وقال بصوت شبه منخفض «رائعة».

بالنسبة لي لم يحدث انخطاف نحوه في تلك اللحظة، بدت ملامح بشرته السوداء غريبة بالنسبة لي، إنها المرة الأولى التي أتأمل فيها عن كثب وفي حديث موجه لي ملامح رجل أسود. وأنا أغادر المكان في اليوم ذاته تصادف خروجنا معاً من المركز، مشينا حتى أول الطريق، كان قد عرفني عن نفسه بأنه يعمل متدرباً في الأمم المتحدة، ويسكن في الأشرفية، ويعد أطروحة الماجستير في الجامعة الأميركية. يومها حين سار محمدو إلى جانبي بدأ إشعاع خفي ينبعث منه، إشعاع دافئ وحدي من الممكن أن أحس به. كان معتدل القوام، عضلاته بارزة برقة، لا تعلن عن رجولة فذة، بل عن ليونة ممزوجة بقوة جذابة، تبينت ذلك من فتحة قميصه التي تبرز عضلات صدره، ومن الأكمام التي طواها حتى منتصف ذراعه. لم تكن مقارنته مع كامل لصالح الأخير، كامل ذو الجسد النحيف حد التقوس، الهش الذي لا يوحي سوى بالضعف.

حدث هذا اللقاء قبل نهاية عامي الجامعي الثاني بثلاثة أشهر، أي في مطلع شهر فبراير، وظلت لقاءاتنا تبدو بظاهرها بلا موعد وفي مبنى المركز فقط.

لم يكن ما أحسه نحو محمدو يحمل أي تفسير منطقي يخضع للعقل، أحاول الفرار منه بالهرب من لقائه لكن ما إن ألمحه في البهو

fb/mashro3pdf

يسير كرمح مشدود ببطء وكسل حتى تنتابني تلك الرعشة، وخفقة السعادة التي تلفحني كنسمة أفريقية ساخنة.

يدرك ما أحسه نحوه من شغف، يقول إنه يرى انعكاس أحاسيسي في عيني، أرى إحساسه بالنشوة يلمع في عينيه لأنه يسبب لي ذاك الخفقان المفاجئ.

لا تساعدنا اللغة على التواصل، ويظل الكلام قاصراً بيننا على عبارات مركبة بين الفرنسية والإنجليزية والعربية. أقول له إنني أحس نحوه بحالة من «الشغف» ثم أترجمها وأنا أشير إلى قلبي.

يبتسم، تبدو لي شفتاه كما لو أنهما مأخوذتان من وجوه التماثيل الأفريقية، تلك الأقنعة المصنوعة كتعويذة لطرد الأرواح الشريرة. أرغب أن ألمسهما، يبتعد عني قائلاً: "المكان غير مناسب". أهز رأسي بحركة أسف، أحاول أن أقول له إنني أحب أن أمر بأصابعي على شفتيه كما لو أني أرسمهما، لكنه يبتعد بهدوء وهو يحرك رأسه يومئ لي أن "ليس هنا".

يلح عليَّ للذهاب إلى منزله، أرفض، يكرر الدعوة وهو يضم يديه إلى صدره قائلا بالفرنسية إنه يحتاجني بين ذراعيه وعلينا أن نستغل كل مساحات الزمن التي تسمح لنا بالبقاء معا، يخبرني أنه سيكون وحيداً طيلة الأيام الثلاثة القادمة، أصمت، أرتجف وأنا أتخيل أنني غداً صباحاً بمقدوري أن أكون معه وحده، من دون هذه الأعين الرقيبة التي ألمح سخريتها لوجودي مع شاب أسود.

أختار ثياباً غامقة، بنطالاً أسود وبلوزة سوداء برسومات بنية، أرتدي معطفاً بنياً فوقهما، الألوان الغامقة غير لافتة للانتباه هكذا تقول أمي. أسير باتجاه الشارع لأستقل تاكسي نحو المنطقة التي يسكن بها.

fb/mashro3pdf

يطغى إحساس المغامرة وشغف لقائي به على خوفي من الذهاب لبيت مجهول، إلى شاب لم يتجاوز زمن معرفتي به أشهر قليلة. قال لي إنه يسكن، في شقة صغيرة مع زميل له، أطوي ورقة العنوان في يدي، أجزم لنفسي أن السائق لا يمكنه أن يلاحظ ارتباكي وهو مشغول بالحديث عن حركة السياحة في البلد، وعن الصفقات التي تتم مع السواح، ينتظر مني الرد أو التعليق لكني أتجاهله، فيتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة.

يومها، ما إن نزلت من السيارة في منطقة "الأشرفية" حتى أحسست بانفصال تام عن عالمي، عن بيتنا، عن جدتي، وعن كامل تحديداً، تخيلت وجهه الصغير الذي يشبه وجوه الفئران البيضاء، أسنانه الأرنبية، شعره الأشقر المشعث من بقائه لوقت طويل في ورشة البناء تحت أشعة الشمس والهواء، جسده النحيل الأبيض، ابتسامته التي تبزغ في وجهه بسبب تفاؤله المبالغ به، كل هذه الأشياء التي تساندها طيبته الزائدة كانت تدفعني أحياناً للحنق عليه رغبة في تغييره ودفعه لرؤية العالم بشكل أكثر واقعية، لكنني أدركت أنه لن يتغير ورغم ذلك أتممت خطوبتنا وأنا أعي تماماً ما فيه من مزايا وعيوب. أحياناً كنت أشعر أنني أشبهه في استسلامي للواقع ورضوخي لهذا الارتباط لاقتناعي بأن كامل شاب طيب وهادئ ولن يتخلى عني لحبه وتعلقه الشديد بي، لم أكن أكترث كثيراً إن كانت هذه الصفات مجتمعة تكفي لتكوين علاقة زواج ناجحة. في أحيان أخرى كنت أحس أنني شريرة وأنه يستحق فتاة أكثر طيبة وهدوءاً مني، فتاة تشبهه حقاً، ولا يمكن أن تذهب للقاء شاب آخر في شقته. كامل لا يمكنه تخيل وجودي في أحضان رجل غيره، تماماً كما لا يمكنه تفسير تحريضي له على أخوته حين يطلبون منه المال أو أي أمر آخر أن هذا يقع تحت مسمى التحريض. كان يدافع عن مواقفي

fb/mashro3pdf

أمـام عائلته قائلاً: "ندى بتخاف على مسـتقبلنا" أما أنا فلم يكن الهاجس المادي هـو المحرك الفعلي بالنسـبة لي كان أشـد ما يزعجنـي هو نظرة إخوته له تلك النظرة الممزوجة بشـيء من الاسـتغلال والاسـتخفاف به رغـم أنه أخوهم الأكبر، الشـاب المتفوق الذي تخرج من كلية الهندسـة في جامعة بيروت العربية، إلا أن تفوق كامل في الدراسة لم يجعله حذقاً في تعامله مع أمور الحياة الواقعية.

كانـوا يخافونني أكثر مما يخافونه، وفي حـال وجودي في زيارتهم يترددون في مداعبته أمامي لأنهم يعرفون جيداً سلاطة لساني واستعدادي للرد، واستعداده للدفاع عني،وتبني مواقفي مهما كانت.

خيـالات علاقتي مـع كامل مـرّت بي وأنـا أنظـر لتجمـع البنايات المرتفعـة التـي يسـكن "محمدو" فـي أحد منهـا. عصف بداخلـي مزيج من الأحاسـيس المركبة بين التعاطف والألفة، الغضـب، وبعض الالتزام نحو كامل الذي يوحي لي بالأمان. لكن إحساس الأمان لم يكن مفضلا عندي، الإحسـاس الذي يشـبه الميـاه السـاخنة في حوض الاسـتحمام، والطعـام المطهو على البخار، رائحة السـبيرتو، والقفـازات البيضاء التي كانت الممرضة ترتديها في "دار العجزة"، صوت جدتي وهي تنهرني أن لا أعود متأخرة عن الساعة الثامنة لأن الليل غير آمن، طلبها مني وأنا في الرابعة عشر أن لا أركب الدراجة مع حسام من دون أن تشرح السبب... تاركة الأمر محض تسـاؤل بالنسـبة لي. فكرة "الأمان" كانت تثير بي كل هـذه التخيلات، ورغم ذلـك ظللت محافظـة على تلك الهالـة المطلوبة مني. ربمـا ليقيني من الحاجة للبيت، وللماء السـاخن، وللطعام الصحي النظيف، ربما لهذه الأسباب أيضاً تمت خطوبتي من كامل.

إحساسـي وأنا أبحـث عن البناية التي يسـكن فيهـا "محمدو"، كان

fb/mashro3pdf

خالياً من أي شعور بالذنب أو تأنيب الضمير، ليس إيماناً مني أن الندم هو الخطأ الثاني الذي نرتكبه، ولا لقناعتي بقول كاتب لا أذكر اسمه إن التفكير بالذنب يقضي على اللذة التي ننتظرها. بل لأنني كنت أحس شعور المؤمن الذي عاش حياته في إيمان نقي وخالص من أي شائبة كبرى تعكر صفحته، لكنه في لحظة ما يقرر سراً اقتراف معصية وهو يدرك تماماً أنها معصية، لكنه لم يتمكن أبداً من مقاومة حلاوة الثمرة وطلاوة عسلها المنساب تحت قشرة وردية رقيقة. يعي المؤمن بعمق أنها خطيئته وحده وليس لكائن بشري أن يحاسبه عليها، يقرر في لحظة ما أن يمنح لحواسه متعة لم تعرفها من قبل حتى في غيبوبة الوجد.

لم أكن أتملق نفسي وأنا أصعد درجات السلم نحو الطابق الثالث، فأبرر وجودي هنا بالإدعاء أن كامل لم يكن مناسباً لي، أو أنني أستحق رجلاً أفضل، أو أنه لا يهتم بأن يشتري لي الورود أو أن يذهب معي إلى السينما، كي نجلس معا نتابع الشاشة في الظلام، لم أنزلق في هذه التحليلات أبداً واعية بعمق أن التخلي عنه أمر صعب بالنسبة لي في تلك المرحلة، لأنه عندي كما البيت وجدتي، والسرير الأبيض، والماء الساخن، والوجبة الطازجة.

هذه الأشياء ليست مفضلة لدي لكن جميع من حولي يعرف ماذا يمكن أن يحدث لي لو أنني اغتسلت بمياه باردة، أو تناولت طعاماً غير صحي، من الممكن أن أمرض لأيام طويلة وأن تعتل صحتي لأسابيع.

لكن لو ترك الأمر لي لفضلت أن أستحم يومياً بمياه شديدة البرودة، وأن آكل من ذاك الطعام المقلي بالزيت والمغري بالتذوق، كنت اخترت أيضاً السهر طويلا خارج البيت لأنني أحب الليل، وأحب أن أشاهد وجه

fb/mashro3pdf

المدينـة كيف يكـون فيه. لكـن الخوف والحـذر وتذكر الحكايـات التي تحكيهـا جدتي تجعلني أركـن لفكرة الأمـان. لأن المجازفـة بالأكل في الخـارج تؤدي بي إلى المرض، والمجازفة بالتأخر ليلاً ستشـوه السـمعة وتقود إلى نبذي اجتماعياً، وعلي أن أظل فتاة محترمة في شـارعنا، وفي الجامعة وفي كل مكان أكون فيه.

هاتفته حين وصلت للطابق الأول كي يفتح لي الباب.

مدخل المبنـى كان هادئاً وخالياً من الناس، حين صعدت زال عني قليلاً إحسـاس التوتر، أو خشـية لقاء شـخص يعرفني، كان هذا الهاجس أكثر ما يلح علي، كيف كنت سـأبرر وجودي هناك. لكنني تأملت البناية قبـل صعودي إليها، كان فيها عيادة طبيـب، ومكتب محامي، كانت فكرة الادعاء بالمـرض هي أول فكرة طرأت على ذهنـي في حال حدوث أمر طارئ.

المساحة العريضة في الطابق الذي يحتوي على ستة شقق أشعرتني بالارتباك وأنا أفرد الورقة لأتأكد من رقم الشـقة التي يسـكن فيها، ورغم ضوء النهـار إلا أن النور كان خافتـاً، حتى المصابيـح الكهربائية لم تكن مضاءة. وجهه الأسود الجميل برز لي ساكناً مواربـاً الباب بهدوء. بدا لي امتداداً للمساحة المعتمة التي تفصلني عدة أمتار عن شقته، سرت بسرعة لأدلف إلى الداخل قبل أن ينفتح أحد الأبواب مبصراً حركتي المترددة.

ما إن دخلت حتـى جذبني إلى صدره، بقيت سـاكنة للحظات قبل أن أخلع معطفي التنكري وأنا أحرك يدي بطريقة تدل على الحر، ابتسـم منسحباً إلى الداخل ثم عاد ومعه زجاجة من العصير وكوبين من الزجاج، تركهم على الطاولة ثم سحبني من يدي لأشاهد البيت. وكأنني تنبهت في تلك اللحظة لضرورة التأكد من وجودنا وحدنا في ذلك البيت المجهول

fb/mashro3pdf

بالنسبة لي. نظرت لثوان إلى الصالة كان فيها كمبيوتر وتلفزيون وكتب ملقاة في أماكن مختلفة على الأرائك الثلاثة التي تملأ الحجرة. سرت معه إلى المطبخ كان واسعاً ونظيفاً ذكرني بالمطابخ التي تظهر في برامج الأطفال، ثم عبر ممر ضيق قادني إلى حجرة مفتوحة يقابلها باب لحجرة مغلقة، أشار لي أنها حجرة رفيقه في السكن، ثم أدخلني إلى غرفته، كان فيها سرير عريض يحتل مساحة كبيرة من الغرفة، بجانبه دولاب قديم للملابس، ومقابل السرير تواليت متروك عليه بإهمال أشياؤه الخاصة، ساعة، زجاجة عطر، كريم للجسم، معطر للجو، أوراق صغيرة. لفت انتباهي القناع الأفريقي المعلق فوق التواليت، ثم العقود الأفريقية المثبتة على جوانب المرآة، وعقود مصنوعة من ثمار الفواكه ومن أخشاب وأحجار لم أستطع تمييز نوعها.

أحدها كان طويلاً ومكوناً من قطع صغيرة ودائرية من العنبر، وتتدلى منه خمسة خيوط، كل خيط منها ينتهي برسم يختلف عن الآخر، كان فيه سمكة، ونبتة ذرة، وطائر صغير، هلال، وشكل آخر يشبه مرساة السفينة، أخبرني أنه يرمز للرياح. حين لمست العقد بيدي ووقفت قليلاً لأتأمله جذبه من مكانه ليضعه حول رقبتي، فرك حبيبات العنبر بيديه وهو يقربها من أنفي لأشمها، ثم راح يشرح لي رمز كل شكل من الخطوط الخمسة المتدلية منه، وأنها مجتمعة تعتبر تعويذة لإبعاد الشر، وجلب الخير والسعادة، ثم ختم كلامه قائلاً إنها معتقدات قديمة عند الأفارقة. لم أعلق كنت أحس وهو يضع العقد حول رقبتي كما لو إنني في طقس قبلي أزف فيه على قرع الطبول، كانت أصوات الرقصات الأفريقية حول النيران المشتعلة، ورائحة ثمار المانجو التي أسمع صوت ارتطامها على التراب الساخن تزكم أنفي وأنا أشده إلي، لأول مرة أقترب بلا وجل من

fb/mashro3pdf

شفتيه، أمام تلك المرآة المسورة بعقود لدرء أشباح الأذى.

كان كل مـا بيننا يتم بهدوء، بلا كلام كثيـر، بيننا تواطؤ على وجود أحاسيس مشتركة لا نستطيع تجاهلها. ظللني إحساس بالاطمئنان وخيط حريـة لذيـذ كان يحركنـي فأتصـرف بوعيي الخـاص بعـد أن تركت كل التعاليـم المعقمة خارجاً. قلت له وأنا أنام على بطني، تاركة رأسـي على الجزء الأعلى من ذراعه" أحس معك أنني بكامل براءتي".

بدت عبارتي بالنسـبة له غريبة ومدهشة سألني بالإنكليزية «كيف؟» أحسسـت حينهـا بعجـزي أمـام اللغـة، كان مـن الصعـب أن أشـرح لـه أحاسيسي بلغة أخرى غير العربية، تقلبت على ظهري وأنا أقول باختصار «لأننـي أحس أنني أفعل ما أريـده «. لم يعلق على عبارتي سـوى بكلمة «جيد»، ثم أقترح علـي أن يريني ألبوم صوره الخاص. كان يقلب الصور أمامي وأنا أفكر أن هذه العلاقة سـتكون مختلفـة تماماً لو كنت أخوضها مع شاب عربي.

اكتشـفت في هذه التجربة أننا نمضي في علاقاتنـا كثيرا من الوقت نتكلـم فيها بأمـور لا تتعلق بنا، ولا تهمنا، وفي أحسـن الأحوال ليسـت إلا مناورات للشد والجذب خصوصاً بالنسبة للفتاة التي تجاهد في اللف والـدوران لتؤكد للرجـل الذي برفقته أنهـا ملتزمة تماماً بـكل ما تعلمته، وأن خروجهـا عـن حبال التقاليـد يحـدث لأول مرة معـه، ويحدث هذا بسـبب الحب. كان هذا السيناريو المكرر بين الفتيات، والمعروف مسبقاً بين الشبان صيغة اجتماعية متفق عليها ومسكوت عنها، إذ يستحيل على إحداهن أن تعترف بخوض علاقات أخرى.

صورة البنـت الطويلة الممتلئـة البيضاء ذات الشـعر البني المتهدل على كتفيها التي ترتدي ثياب البحر، استوقفتني قبل أن يخبرني أي شيء

fb/mashro3pdf

عنها، أشرت إليه بالسؤال، أجابني بالفرنسية إنها خطيبته، أحسست بغصة عابرة لكنني حاولت الابتسام وأنا أقول "جميلة"، ثم أبادره بالسؤال عن هويتها، قال لي إنها فرنسية.

لا أعرف لماذا حين حكى لي عن خطيبته يوم كنا في المركز، خمنت أنها ستكون من بلده، وأنها ربما من ذات القبيلة التي ينتمي إليها، لا أعرف لماذا لم أخمن أبداً أن تكون خطيبته فتاة فرنسية بيضاء... يا لسذاجتي في معرفته، أدركت حينها مدى جهلي في الإلمام بتاريخه وأن حدود معرفتي به اقتصرت على أشياء من الممكن أن نعرفها عن أي غريب نلتقي به في رحلة سفر عابرة.. معلومات تنفع كعناوين عريضة للشخصية، لا كجغرافية سرية لخريطته النفسية. الاسم، البلد، العمر، المهنة، أشياء تفيد ضابط الجوازات أكثر مما تهم امرأة تحس بشغف نحو رجل ما. فجأة قمت من جانبه، جلست منتصبة الظهر، كنت أحدق في جسده الممدد أمامي بكامل لمعانه وتألقه، عضلات صدره بارزة، خصره ضيق، ذراعاه قويتان، طلبت منه أن ينقلب على بطنه أردت تأمل ظهره، بدا لي عاموده الفقري مستقيم جدا، رحت أتحسس بشرته اللامعة، أمر بأصابعي على ساقيه النحيلتين الخاليتين من الشعر، يتحرك بكسل، ينظر إلي بدهشة كما لو إنه لا يصدق أنني شغوفة به إلى هذا الحد. أقول له وأنا أمر بيدي على جبينه وصدغيه مشيرة إلى القناع الأفريقي المعلق على جدار غرفته "وجهك يشبهه".

يبتسم، تبدو لي ملامحه طفولية، لا تتناسب عما يحكيه عن الأقنعة الأفريقية قال لي إن القناع يمثل الفن القبلي، وإنه جزء من البحث عن وجه آخر، القناع له وظيفة خاصة في الطقوس الدينية. ويمكن أن يدخل القناع في أفريقيا في كل المجالات الاجتماعية والسياسية والدينية،

fb/mashro3pdf

وفـي حفـلات اللهو أيضـاً، ويسـتعان بـه لأوقات مهمـة كما فـي تلقين أسـرار الديانـات القديمة، وطقوس الـزواج والموت. وتسـتخدم الأقنعة في الحفـلات الراقصة لكونهـا تمثل القـوة الخلاقة للفنانيـن والراقصين الذين يكتسـبون بوضعها بعداً رمزياً. يتكلم ببطء، يتحسس ظهري بتلكؤ مثير يمسـح من ذهني قبلات كامل السريعة التي تشـعرني دائماً أنه علينا الانتهاء بسرعة.

يحكي عـن المغنيـة والممثلـة الأميركيـة ديانـا روس، يفتـح البوم صورها على جهاز كمبيوتره، ويختار أغنيتها المفضلة لديه:

."Take Me Higher"

ثـم يخبرني أنه ينبغـي عليَّ مشـاهدة فيلمها الرائـع "Lady Sings the Blues".

يتصرف «محمدو» معي كما لو أنني باقية معه لوقت طويل، كما لو إننا باقيان للأبد. لوهلة ما ينتابني الشك في عدم تلهفه، غموض ملامحه لا يسـاعدني مطلقاً علـى قراءة أفـكاره، يبدو لـي عصياً علـى التفكيك، وحل لغز أفكاره. مع كامـل كنت أحس كما لو إنني قادرة على قراءة أية فكرة تعبـر مخيلته مصادفة. لكنني لم أكن سـعيدة بذلك. لـذا انتهى كل شـيء بيننا كخطيبين ولم تظل إلا صلة القرابة التي وهنت جداً بعد موت جدتي وأبي.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

اشتريت ثياباً للبحر من محل "الألدورادو" في الحمرا، الأحد القادم سأذهب للمسبح الخاص بالنساء، إنها أول مرة أذهب فيها للسباحة هذا الصيف. كان الوقت عصراً تابعت السير إلى آخر الشارع حتى وصلت إلى مكتبة "بيسان". لمحت "سوسو" تعبر شارع الحمرا الرئيسي، قادمة نحوي. في الجامعة كنا نناديها "سوسو" لأنها لم تكن تحب أن يناديها أحد باسمها الحقيقي "ست البنات"، وإن فعل تطلب منه مناداتها سوسو.

بعد تخرجنا من الجامعة اتفقنا على اللقاء أسبوعياً، كان عدد الفتيات في ذلك الاتفاق ثمان والشبان ثلاثة، لكن اللقاءات لم تستمر سوى خمس أو ست مرات وصارت تتناقص في عدد الأفراد والمرات إلى أن توقفت تماماً.

حين شاهدتني سوسو سلمت علي بحرارة وأخذتني على جانب الطريق، أخبرتني أنها تعمل موظفة في "شركة الكهرباء" تقول "هيدي وظيفة دبرلي إياها بابا" ثم انهمرت أسئلتها عن مايا وسعاد وهند وزياد وكاميليا وهدى وعلي وموفق... و... و... و...

إجاباتي كانت مختصرة لأني مثلها لم أكن أعرف الكثير عنهم، حكيت لها فقط عن أخبار هند وزياد، وأنهما يستعدان للزواج، وبعد أن ذكرت الخبر تنطلق "سوسو" من جديد للسؤال "كيف وليش.. وإيمتى.. ومين فيهن اللي غير دينه... ووين رح يتزوجوا؟"

ثم تفاجئ حين أقول لها "مدني... رح يتزوجوا مدني".

fb/mashro3pdf

تظهر "سوسو" دهشتها وبعض الامتعاض ثم تتمتم: "معقولة؟"

ينتهي اللقاء بيننا بالاتفاق على التواصل من جديد وعلى الاتصال ببقية المجموعة لعقد لقاءات ومواعيد جديدة.

أدرك أن لا شيء أكثر من ذلك، سوسو لن تتصل وأنا لن أتصل، وسيظل كل ما قلناه مجرد كلام عابر انتهى على الرصيف.

كل منا صار له إيقاع مختلف عن الآخر...

إيقاع يومي لا يستطيع الآن تقاسمه مع الآخرين كما كان يفعل أيام الدراسة.

لكن من الثابت أيضاً بالنسبة لي أن هناك أزمة تواصل بين البشر، كنت أعرف مثلاً أنني لن أبادر بالاتصال مع "سوسو". صار من الأسهل القيام بمحادثة عبر الماسنجر على التواصل مع صديق قريب. علاقاتنا الإنسانية في هذا الوقت باتت حاضرة عبر الصوت سواء عبر الهاتف أو الكمبيوتر.نحن صرنا مختصرين إلى صوت،مجرد صوت، الصوت هو الوسيلة الفعالة التي تبتسر وجودنا البشري بالنسبة للآخرين،وتجعلنا على تواصل معهم.

* * *

كانت ليلتي خالية من الكوابيس.

عند الساعة العاشرة صباحاً اتصلت بابن عمي حسان وطلبت منه الذهاب معي إلى المستشفى لأحضر عمتي كي تمضي معي إجازة آخر الأسبوع، لم يمانع، قال: «نص ساعة وبكون عندك». يتكتم حسان على علاقته بي أمام أهله، لا يخبرهم عن زياراته لي، وعن صداقتنا القوية، كان بالنسبة لي كأخ صغير رغم طوله الفارع الذي يتجاوزني بما يقارب نصف متر مما يعطيه عمراً مضاعفاً يسمح للرائي بالظن أننا متحابان.

fb/mashro3pdf

كان الطقس مشمساً باعتدال، الشمس في شهر حزيران تملك سلطة مطلقة لإزعاج البشر بحرارتها القاسية، لكن عند الصباح كان هناك دفء وتوهج مـن دون حرارة خانقة، بإمكانك ملاحظـة ذلك من وجوه الناس الصافيـة التي لا تنز عرقاً وشـكوى من «الشـوب اللي مـا بينحمل». قال حسـان: «لسه ما شـوبت منيح مش هيك، أو يمكن علشـان الدنيا بعدها الصبح، بعدين معقولة إنت بدل ما تعزميني على فنجان قهوة على البحر بتاخديني من هالصبح على المستشفى لنجيب عمتك».

«عمتك أنت كمان شو نسيان».

«لا مش نسيان، أمري لله..».

سألته :»لوين قلت لأهلك إنك رايح؟»

«ما قلت... بعد ما اتصلتي فيي نزلت، وقلتلهم راجع بعد شوي».

«يعني ما قلتلهم إنك جاي معي...كتير ذكي».

«هلق عمتك رح تقول، أول ما تشوف بيك؟».

«كيف فاتتني هيدي يا نانا، صح... معك حق.. طيب إذا قلنا لها ما تخبر حدا بيمشي الحال؟»

«مش مضمـون، عمتك ما بتعـرف إيمتى بينقلـب حالها.. مش رح إشرحلك أنا يعني».

«بتعرفـي نـدى.. زمـان كنـت فكّر إنـه عمتي رح تشـفى بيـوم من الأيام... أحيانـاً أنا وصغير كنت قول يمكن أهلها مـا اهتموا بعلاجها... ويمكن.. ويمكن... هلق ما عاد عندي أمل أبداً..».

«بتصدق.. أنا ما فكرت هيك أبداً.. أنا وصغيرة كانت سـتي كل ما تعبت تاخدها على المستشفى تخليها شهر شـهرين، وترجعها... علشان هيك ما إجا ببالي إنها رح تشفى وتقعد معنا على طول متل كل الناس».

fb/mashro3pdf

«شوف سواق التاكسي هيدا، يمكن يكون رايح هونيك عالمنطقة».

مدّ سائق التاكسي رأسه حين أشار له حسان بالتوقف قائلاً: «نزلة المدينة الرياضية من جوا عند المستشفى..».

«سرفيسيين» قال السائق.

وهذا يعني أنه سيأخذ الأجرة مضاعفة، قبلنا، اختصاراً للوقت، وخوفاً من اشتداد لهيب الشمس، لكن يبدو أنه كان يفعل ذلك لنرفض إذ حين وافقنا بدا عليه الارتباك وراح يشرح خطة الطريق لباقي الركاب. ظاهرة سائق التاكسي المتكلم والفصيح عادية جداً في بيروت لأنه يحول سيارته إلى صالون متحرك يتبادل فيه الركاب آراءهم في السياسة والمجتمع والدين، وفي الأحداث العالمية، وآخر فيديو كليب في السوق، وماذا فعلت هيفا وهبي، وبأية الفساتين ظهرت ومع من تشاجرت. ويمكنك أيضاً أن تعرف أخبار البلد، والسياحة، وهل هناك تغيرات حدثت عن العام الماضي. بسهولة يتم تبادل الآراء التي تصل إلى حد الصدام خاصة في حال اختلاف الركاب وتضارب ميولهم السياسية والدينية. وفي حال كنت زائراً إلى بيروت ربما لا تزعجك هذه الظاهرة، إذ يتعامل معها البعض بلا مبالاة، فيما يتفاعل البعض الآخر مع سائق التاكسي وتقوم بين السائح والسائق خدمات متبادلة كأن يرشده إلى مكان ما، أو ينصحه بالتوجه إلى منطقة دون غيرها. لكن في حال كنت ممن يستقل سيارات التاكسي يومياً فإن الزمن الذي تمضيه في الصالون المتحرك سيتحول إلى زمن ضبابي ثقيل خاصة إذا صادفت سائق تاكسي يتبرع بإلقاء نصائحه الطبية ووصفاته العجيبة على كل راكب، وتتبدل أدواره بين طبيب ومصلح اجتماعي، ورجل سياسة وفاعل خير.

بعد صعودنا إلى التاكسي اقترب حسان من أذني قائلا «الله يكون

fb/mashro3pdf

بعونـك يا بنت عمي علـى هالزيارة، أنا لو ما أنت مـا بفكر روح هونيك أبداً».

«كيف ما بتفكر حرام عليك، يعني هي عمتي لوحدي... هي عمتك كمان.. بلكي أنا مرضت مثلاً ما بتجي بتزورني».

سكت حسان ثم قال لي «سلامة قلبك ليه بتقولي هيك...؟»

لم أرد.

سألني فجأة بصوت منخفض:

«برأيك عمتي مريضة مرض أو ساكن فيها شي شيطان... أو معقول لأنها مـا تزوجت، بتعرفـي مرة سـمعت جارتنا عم تقول هيـك لأمي... قالتلهـا هيدي أخت زوجك لازم تلاقوا لهـا زلمة تتزوجه وإلا رح تضل مدوخيتكن عند الحكما والمستشفيات».

«من وين بتجيب هالأفكار... إيه مريضة وبس».

«يعني ما في احتمالات تانية لمرضها... أنا مرة سـمعت بيي وأمي بيقولـوا إنها مرضت من بعد ما جـدي ضربها ووقعت على الأرض على راسها وصارت تنزف، وبعدين صارت تهلوس».

فتحت الشباك...

الحر شديد، أحسست بضيق وبفقدان الأوكسجين من السيارة.

قلت: «كتير شوب مش هيك».

«إيه شوب».

حيـن وصلنا إلـى المستشـفى، جلس «حسـان» فـي الكافتيريا، في الطابـق الأرضـي، وصعـدت أنـا إلـى الطابـق الثانـي، فتحت لـي الباب ممرضـة لم أرها مـن قبل بعد أن تأكدت من هويتي عبر شـراعة الشـباك

fb/mashro3pdf

الصغيرة. بدت لي متوسطة السـن، حنطية اللون لكن بشرة وجهها سيئة، شعرها أسود غامق، وجهها متجهم. سألتني باقتضاب وهي تنظر للكيس الكبير في يدي:

«مين بدك؟»

قلت:

«زيارة عند المريضة رجاء عبد النور...».

نظرت إليَّ نفس النظرة العابسة ثم عادت تسألني:

«شو بتكوني لها؟»

«أنا بنت خيها».

في تلـك اللحظـة بـدأت المريضـات يظهرن مـن الغـرف، وما إن شـاهدن الباب مفتـوح قليلاً حتـى تسـارعن للنظر إلـى الزائـر، لمحتني «سـعدى» زميلة خالتي في الغرفة، بدأت تتمتم عبـارات غير مفهومة من ضمنها:

«يي مسكينة... مريضة رجاء... تعبانة».

ترفـع أصابع يدها من فوق رأس الممرضـة وتقول لي «صار لها 3 أيام.. ويي شو بتحبك... جبتيلها دخان، خلصت الدخان اللي معها كله، ما تنسي...».

ارتفـع زعيق الممرضـة الجديدة، أحسسـت بخـوف وانكماش في أعصابي، قالت:

«ولـي سـعدى انقبـري فوتـي لجـوه... وإنتي هنـاء علـى أوضتك بسرعة، يالله لشوف الكل لجوه».

إحدى المريضات، كانت أربعينية تجلس في الصالون الكبير ترتدي

fb/mashro3pdf

عباءة خضراء ثمينة وتضع ماكياجاً كاملاً تجلس في مواجهة التلفزيون، وكما لو إنها لم تسمع الصراخ، فقد استمرت في مراقبة أحداث المسلسل، صرخت فيها الممرضة: «يالله كريمة لجوه معهن». رفضت الدخول قائلة: «بدي شوف التلفزيون».

«ما في تلفزيون، كلكن لجوه، على غرفكن بسرعة، وبعد الغدا منشوف التلفزيون».

ابتعدت المريضة إلى الداخل، والتفتت الممرضة إليَّ قائلة:

«مين يا عيني قلتيلي بدك؟»

قلت: «عمتي... عمتي... رجاء...»

قالت: «مين عمتك رجاء... عنا ثلاثة إسمهن رجاء هون».

كان داخلي يرتعش تمتمت بسرعة:

«إيه إيه... بقصد عمتي رجاء عبد النور».

«رجاء ممنوع عنها الزيارة عملولها جلسة كهربا مبارح، وهلق لتفيق بدها شي ثلاث أيام، تركيلها الغراض اللي جايبيتهن، وبس تفيق منعطيها إياهن».

ناولتها الكيس من دون أن انظر إلى وجهها مباشرة، وأسرعت بالنزول على الدرج الرخامي الأبيض الكبير، حين وصلت إلى أسفل، أحسست كما لو إنني استعدت حريتي، إنها ذات الأحاسيس والانقباضات التي تنتابني كلما دخلت إلى غرفة المريضات، كلما شممت رائحة جنونهن المنتشرة في هواء ذاك المكان.

«وين عمتي؟ وليه وشك أصفر هيك؟» سألني حسان.

«عمتي تعبانة، مانعين عنها الزيارات... يالله نفل».

fb/mashro3pdf

«اقعدي اشربي شي... بجبلك عصير...».

«لا.. ما بدي.. يالله قوم...».

حين خرجنا من بوابة المستشفى كانت الشمس مستفزة جداً، أشعتها دفعت الدموع إلى عيني، أحسست بحرارة عالية وعطش شديد، قلت لحسان:

«بدي مي، عطشانة...».

«طيب انطريني لجيبلك...».

عاد حسان إلى المستشفى ليشتري قنينة ماء صغيرة، كنت أقف وحدي في الشارع، وقفت سيارة قرب باب المستشفى، ونزل منها رجلان ضخمان يسير بينهما شاب صغير في السن لا يتجاوز العشرين، كان يصرخ ويرمي نفسه على الأرض، يسب ويشتم، إنه لا يريد الدخول إلى المستشفى. أحكم الرجلان قبضتهما عليه وفي لمح البصر دخلوا ثلاثتهم إلى المستشفى وابتعدا عن الأنظار.

عاد حسان، ناولني قنينة الماء، كنت أحس بدوار إلى جانب العطش والحر، بدا حسان مضطرباً وهو يسمع صراخ المريض تمتم بصوت منخفض وهو يحرك فمه بأسف «مسكين.. شاب صغير».

قلت: «إيه حرام... مدري شو قصته».

«بتحبي نروح على شي محل... شو رأيك ننزل نقعد على البحر، بعد هالشوفات اللي شفناها اليوم» قال حسان.

لم تكن لديَّ أدني رغبة بالكلام كثيراً، أجبته:

«لازم إرجع على البيت.. يمكن تجي اليوم لعندي أم سمير».

«ييي.. بعدها بتجي لعندك... حتى بعد موت ستي... شو بتجي

fb/mashro3pdf

بتعمل عندك؟»

«ما تحكي هيـك، أنا كتير بحبها، بتسـلى لما بتجـي لعندي، بتقعد

بتحكيلي خبريات ما بتخلص قديمة وجديدة».

* * *

0

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

أمي – أم سمير

تنتهي حكاية النبي يوسف عند أمي أم سمير عندما يتم إنقاذه من غياهب الجب... كانت تروي الحكاية بمزيج من الإثارة والخيال خاصة في الفقرة الأخيرة التي توشك قبلها بالتوقف عن السرد، حين يصيب القافلة العطش فترمي الدلو في البئر ثم تسحبه لتجد فيه غلاماً شديد الحسن والجمال... هنا تنتهي القصة بأن يذهب الصبي مع القافلة ولا نعرف بعد ذلك ماذا حدث له.

في كل زيارة لأمي أم سمير إلينا كانت تجمعنا حولها أنا وزين وهاديا وتحكي لنا ذات الحكايا التي لا نمل من سماعها. قصة البنت الصغيرة "جبينة"،التي دعتها أمها بهذا الاسم لشدة بياضها، ثم خطفها النور وأصيبت أمها بالعمى لكثرة ما ذرفت عليها من الدمع، ثم قصة "الغزالات الثلاث" اللواتي أرسلهن والدهن إلى السوق ليبعن غزلهن، وتختتم الحكايا بقصة النبي يوسف. القصة التي ظلت في مخيلتي حتى الصبا، وظللت أستمع إلى تلاوتها عبر جهاز التسجيل عندما كانت جدتي تستمع إليها في الصباحات الباكرة.

كانت أم سمير تأتي من الجنوب لزيارة جدتي، تحضر مع ابنها سمير كلما جاء إلى بيروت، تصل محملة بأكياس من الضيعة فيها برغل وفريك وعدس، مرطبانات مربى وعسل من منحل ابنها.

أما كيف أخذت هذا الاسم فلا أعرف سوى أن أبي وعمتي كانا يناديانها (أمي – أم سمير) مع أنها لم تكن شقيقة جدتي، لكن جدتي تقول أن أم سمير قد شاركت في تربية أبي وعمي وعمتي، لا

fb/mashro3pdf

أعرف كيف حدث ذلك أو متى، كما لا أعرف وجه القرابة بالتحديد إذ لشدة تداخلها لم أحفظ الصلة الأقرب لكن الأمر المؤكد أنها من بنات عمومتها وخالاتها وكان يجمعها بجدتي علاقة وطيدة تعود لزمن طفولتهما. كانت امرأة قوية البنية ضخمة الجثة، طويلة وعريضة، تشبه جدتي في ردود الأفعال وبعض التصرفات، إلا أنها كانت أكثر رقة منها، وكانت أيضاً مثل جدتي أرملة تفرغت لتربية أولادها منذ سنوات الشباب. استمرت صداقتهما طيلة هذه الأعوام، صداقة متينة تجمعهما في الأفراح والأحزان، ثم عندما ماتت جدتي ظلت أم سمير تأتي لزيارتنا بين حين وآخر، تبقى طوال اليوم أو تبيت ليلة وتغادر عند الصباح، وخلال ساعات بقائها كانت تبادر للقيام بكل ما كانت تقوم به جدتي من مهام منزلية صعبة، تشمل الطبخ وإعداد الكبة والتبولة ومغمور الباذنجان والملوخية وسائر المأكولات التي تدرك أنني لن أقوم بإعدادها أبداً.

كان وجود أم سمير في حياة جدتي يجعلها على صلة بضيعتها في الجنوب، هكذا تظل متواصلة مع أقاربها ومعارفها وجيرانها، عبر سماع أخبارهم وزيارتهم في أيام الصيف، وفي الأعياد، وعند حدوث أمر عاجل من فرح وحزن.

لم أكن أرى في جدتي سوى امرأة قوية، العواطف الإنسانية عندها تأتي في الدرجة الثالثة بعد العقل والمال. كانت تحب أن تدلل نفسها، كما تحب الظهور كزعيمة أمام جاراتها ومعارفها وأقاربها. وفي معظم الجلسات تكون "جدتي" سيدة الموقف بلا منازع خاصة حين يكون دورها في "الصبحية"، حيث تجبر كل جارة من اللواتي يشربن الأراغيل بإحضار أرغيلتها والمعسل الذي تشربه، تقول لهن ما بين الهزل والجد وهي تضرب على صدرها "وأنا علي المكان والفحمات".

fb/mashro3pdf

لم تتميز جدتي بشخصيتها القوية فقط بل بجمالها الخارجي أيضاً، أستغرب جداً كيف أن عوامل الزمن لم تفعل معها أفعالاً قوية مثل التي أراها عند سائر النساء. جسدها ظلّ متماسكاً حتى لحظة موتها. بشرتها ناصعة البياض، متوسطة القامة أميل إلى القصر منها إلى الطول، ممتلئة مع بدانة قليلة، ملامح وجهها تشبه رغيف خبز كبير أبيض ومحمر عند الوجنتين، عيناها سوداوتان أما شعرها فكان بنياً قاتماً تعقصه إلى الخلف دوماً.

ورغم شخصيتها المتسلطة إلا أنها كانت محبوبة بين الجارات، كانت مثل المعالج النفسي بالنسبة إليهن خاصة عندما تجلس مع كل واحدة على انفراد وتسهب في إعطاء النصائح والوصفات، خاصة في جلسات الصبحيات اليومية المتبادلة بين الجارات وفق برنامج محدد، كانت جدتي تقرأ لهن الطالع، تفسر الأحلام، وتقوم بإجراء الاستخارات عن الأعمال التي يطلبن منها الاستخارة حولها.

تحب جدتي أن تحس أنها مهمة ومحاطة بكثير من الناس، ومن أجل إشباع هذا الإحساس عندها نظمت هذه اللقاءات والمواعيد اليومية بينها وبين الجارات والصديقات وبين أقاربها القريبين منهم والبعاد. مواعيد لم تكن تختل إلا في حدوث طارئ قوي. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت تحب المشاركة في كافة المناسبات الاجتماعية من فرح وحزن، زفاف وطلاق، ولادة وموت...

أكثر ما كان يدهشني في مخططاتها تلك أنها لم تكن تبذل جهداً سواء كان مادياً أو معنوياً، معظم هداياها ارتجالية، إيشارب، منديل، قميص نوم حصلت عليه في عيد الأم، أو في مناسبة أخرى ولم يعجبها، فتهديه لإحداهن، قنينة زيت زيتون، أو مرطبان عسل من أم سمير تهديه

fb/mashro3pdf

لامرأة وضعت طفلا بحجة أنه يدر الحليب.. وهكذا...

لم أكن أحس أنها تتعب من تلك الاستقبالات التي كانت تجبرني على المشاركة بها، فأخرج منها مع إحساس قاتل بصداع أبدي.

* * *

بين أمي التي أنجبتني وجدتي التي ربتني لا يوجد أي شبه.

في الوقت الذي تبدو فيه الأولى امرأة رقيقة وهشة فيها ضعف أنثوي مولود معها، وقابلية واضحة لأن تتعرض للخداع، كانت جدتي امرأة لا تقهر تتمتع بسلطة ذكورية تطغى على سلوكها، سلطة تغلفها بدهاء أنثوي تستفيد منه في تحويل مواقف الحياة كلها من الضد إلى المع.

ربما لا يجدر بي المقارنة بينهما أبداً. كيف أقارن حماة وزوجة ابنها. معادلة غريبة، لكنني أقوم بها لأنني عشت بينهما، كما لو أن لي أمين.

لم أفهم أيضاً كيف كانت كل واحدة منهما تكِنُّ إعجاباً باطنياً بالأخرى، إعجاباً لا يلاحظه أحد غيري، أظن أنه تكون من تضادهما.

أمي تنظر إلى جدتي (حماتها) على أنها امرأة قوية صمدت أمام مصائب الزمن ونكباته وربت أولادها وحيدة، وتمكنت من إحكام القبض على أفراد عائلتها جميعاً. ثم الأهم أنها تمكنت من تربيتي ورعايتي، وإن كان اعتماداً على مبلغ شهري ترسله لها تحت مسمى «نفقاتي الخاصة». نفقات لم أكن أنفقها، وبعد موت جدتي تم اكتشاف مبلغ لا يستهان به من المال في البنك، تم تقسيمه بين أولادها، أبي، وعمي، وعمتي رجاء.

جدتي لم تكن تنكر في جلساتها الحميمة مع (أم سمير) أن أمي

fb/mashro3pdf

أحسنت التصرف بقرارها الزواج والسفر بعد طلاقها من أبي، كما لم تكن تنكر جمال أمي الطبيعي وتناسق جسدها. فأسمعها تقول لأم سمير:

«برافو عليها ماجدة، منيح اللي تركته، مش ابني بس ما بينحمل... ولا بينطاق... والله لو البيت بيضرب بيقلب بيضل نايم ولا همه... وكله على جنب وأنه بيجيب معه البلا الأزرق اللي بيشربه.. بقلله حرام عليك، أنا ست مصلية وحاجة بيت الله... لمين كانت بدها تقعد ماجدة لهالبنت... بتربى كيف ما كان».

لكن جدتي تنعطف للحديث عن النعيم والثراء الذي تعيش فيه أمي، وبالنسبة لها هنا بؤرة الحدث الرئيسية والمهمة، إذ إنها لم تكن لتقول عنها كل ذلك لو كانت أمي متزوجة من رجل فقير، ولا تحتكم على المال.

«لو تشوفيها يا أم سمير سنة الماضية لما إجت تاخد البنت... ما بتعرفيها، معها سيارة بيضا مرسيدس وشوفير، ولو تشوفي الجخ ولا كأنها ممثلة سينما... بس لا والله ماجدة حلوة بطبيعتها».

ثم بعد هذا الحديث كله تعود جدتي لتنفي كل ما قالته سابقاً مؤكدة تعاسة أمي في حياتها قائلة:

«بس شو بدك بكل هالحكي، ما في شي بيعوض بعد بنتها عنها، وحسرتها من القلق عليها، وهيدي بنت بالنتيجة مش ولد».

في طفولتي كنت أستمع لحوارات جدتي وأبكي في العتمة. وفي المدرسة كنت أحس بالضآلة حين تطلب مني المدرّسة قدوم ولي أمري. الفتيات يسألنني: «وين أمك، ليه ما بتجي عالمدرسة؟» لا أرد، أنطوي داخل شرنقتي.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كابوس

كانت جدتي تقول عن الكوابيس إنها من الشيطان لإخافة الناس. وإنه عليَّ النفث يميناً ويساراً حينما تداهمني متمتمة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

الكابوس ذاته يتكرر بتركيبات مختلفة.

عمتي تركض في الشارع بشعر منكوش، وأنا أركض خلفها، ثيابي ملوثة بأتربة ووحول بلون الصدأ، خلفي سواد وأمامي سواد، في الشارع، وفي السماء. وهي تقهقه مولولة ثم تبتعد بعيداً. ثم أرى نفسي كما لو إنني صرت هي.

أنا المنكوشة الشعر التي أولول وأصرخ.

وجوه متعددة لكابوس واحد.

تحت عيني سواد. المرآة تظهر آثار فزعي.

كوابيس عمتي ليس لها موعد، وليست مرتبطة بزياراتي لها، أحياناً عندما أغيب عنها، تأتيني كوابيسها بإلحاح كما لو أنها تطالبني بالزيارة.

أسحب نفسي من تحت الغطاء بصعوبة، إرهاق يسكن عضلاتي.

أقف تحت الماء الكثيف البارد، علَّني أنبّه أعصابي، وأطرد أشباح الليل التي سكنت مساماتي.

يسري بي خدر المياه الباردة.

مخيلتي تعيد تركيب الحلم مع إضافات مختلفة، وهواجس مرعبة عن جينات تخزن في خلاياي المرض نفسه.

fb/mashro3pdf

لو مرضت أنا من سيأتي لزيارتي؟

لـو أصابني الجنون، لو صـرت مثل عمتي من سـيهتم لأمري؟ من سيعتني بي؟

أحاول تهدئة نفسـي بالقول إن حالة عمتي مختلفـة، وأنها مرضت لأسـباب مجهولة، وأنه مـن غير المحتمـل أن تتكرر ذات الأسـباب في حياتـي، إذ ليس من المعقـول أن أعيش كل هذا الرعـب مع كل كابوس أرى نفسي فيه أتحول إلى عمتي.

أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأهمس في سري أن كل ما رأيته ليس إلا كابوساً عابراً.

أنشف جسدي بمنشفة كبيرة بيضاء.

على ذراعـي اليسـرى آثار أظافري الخمسـة مغروسـة فـي اللحم. فـي ليال أخـرى كنت أسـتيقظ فأجـد أظافري مغروسـة في باطـن كفي، كمـا لـو أن أثلاماً صغيرة تنبـش في لحم اليـد، أفكّر ماذا لـو لم أصحى مـن الكابوس، ماذا لو ظلت أظافري تنغرس فـي لحمي أكثر وأكثر حتى سيلان الدم؟

ماذا لو كان الكابوس القادم يتكون من أنني سـأقوم بخدش وجهي أو رقبتي، بالضغط عميقاً على نقطة ندى الحياة وإدمائها.

أضع الماء علـى النار، أجهز في فنجاني الأبيض – المرسـوم عليه أشـكال مختلفة لدبب البانـدا – مزيجاً من النسـكافه والحليب المجفّف وملعقة من السـكر وقليـلاً من الماء البـارد. أبدأ بتحريكه بقـوة، الملعقة تصـدر أصواتاً مرتفعة، أزيـد الضربات، أكثر فأكثـر، وكلما ارتفع صوت المعدن في الفنجان، وتحول المزيج إلى قوام كريمي متماسك أحسست بثباتي على الأرض، وبقدرتي على تغيير الأشياء.

fb/mashro3pdf

مـدار القهوة يبـدأ يومي معـه، ومع تفقـد قدرتي على اختبـار متعة حواسي الغافية.

أصـب الماء السـاخن فـي الفنجـان حتى امتلائـه، آخذ مـن خزانة المطبخ علبة بسكويت دايجيستف، أسير من الممر المستطيل إلى حجرة الجلوس حيث التلفزيون الذي أتركه يعمل طوال الليل بصوت منخفض، لئلا أتنصت للصمت الذي يغرق البيت فيه منذ ساعات المساء الأولى.

رائحـة قهوتـي الممزوجة بالحليـب، تعيدني إلى الواقـع أكثر، لون الرغـوة البنية الفاتحة تبعث نشـوة خفيفـة داخلي، أمسـك الفنجان بيدي اليمنى، سخونته تلامس أصابعي الرطبة، متعرقة قليلاً، عرق بارد، أخشى انزلاق الفنجان من يدي، أمسكه بكلتا يدي، أضعه على الطاولة الصغيرة. أنشـف يدي بمنديل ورقي، وأغمّس قطعة البسـكويت في كوب القهوة، أسحبها سـريعاً إلى فمي قبل أن تتشبع بالسائل وتسقط في الكوب. آخذ رشفتين من الفنجان قبل البدء بجولة الصباح على القنوات الفضائية.

سـكون غامـض فـي البيت، وكمـا لـو أن الأشـباح لم ترحـل بعد وتجلـس معي فـي ذات الغرفة، كما لو أنهـا تتأملني، وترغب مشـاركتي القهوة، لماذا تظل صامتة؟ لماذا لا تكشـف عن هويتها وأسمائها؟ لماذا لا تحكي عن سبب قدومها لزيارتي بين حين وآخر؟

أرفع صوت التلفزيون عالياً جداً، فيديو كليب لفنان لا أعرف اسمه، أخبار ضحايا انفجارات في العراق على قناة الجزيرة، الشيف رمزي يعد وجباته الشـهية، هيفا وهبي تغني «بوس الواوا»، مسلسـل مكسيكي على قناة المسلسـلات، وفيلـم «الحب الضائـع» على إحدى قنـوات الأفلام. أتوقف عن تقليب القنوات أمام مشـهد سعاد حسني ورشدي أباظة وهما متعانقان بجوار المدفأة، مشهد حسـي بامتياز، يبعد تفكيري عن الأشباح

fb/mashro3pdf

التي تسكن بيتنا، تتحرك خيالاتي نحو ذاك الشغف الجارف الذي دفع بطلة الفيلم للدخول بعلاقة غرام مع زوج صديقتها الوحيدة، إنها المرة الثالثة التي أشاهده فيها خلال عامين، وفي كل مرة أقاربه من زاوية مختلفة. أفتح جزءاً من النافذة، يدخل إلى الغرفة ضوء ساطع وأصوات الشارع تبدو أكثر وضوحاً. تربيت في هذا البيت بين جدة قوية، وعمة شبه مجنونة، وأب صامت.

في لحظات وحدتي، في أيام العيد، وفي الصباح الباكر، لطالما تمنيت لو كانت أمي معي، لو كانت علاقتي بها أكثر عمقاً من زياراتها الصيفية التي تحضر لي فيها ثياباً وأحذية، وحقائب من آخر الموضات. وتصطحبني في نزهات ورحلات لنطوف الجبل والشمال والجنوب مدة أسبوعين قبل أن يأتي زوجها وولديها وتنشغل بهما.

لو كانت علاقتي بها أكثر عمقاً من مكالمات هاتفية نصف أسبوعية تنتهي دائما بعبارة:

«يا تقبريني يا ندى، انتبهي على حالك، وعلى دروسك يا إمي، ما بدي وصيكي، دروسك عندي أهم شي، علشان تتخرجي من الجامعة، وتجي تشتغلي وتعيشي معي هون».

لو كانت علاقتي بها غير ذلك، ربما كنت حكيت لها عن محمدو، وعن حنيني له، وخوفي من الارتباط به. لكن المسافة التي تفصلها عني، إيقاع حياتها المختلف، لم يكن ليساعدني أبداً على البوح.

بعد سفرها وزواجها، ثم إنجابها ولدين، افتتح لها زوجها محلاً لبيع التحف القديمة، اللوحات، والمطرزات اليدوية الثمينة التي كانت تستوردها من شرق آسيا، صار لها دخلها الخاص، لذا استمرت في إرسال المال لي بلا قيود عليها. أخذتني لزيارتها مرة واحدة عندما كنت

fb/mashro3pdf

في الثالثة عشر من عمري، في تلك المرة عرفت أن أمي لم تفصح عن وجودي في مجتمعها الجديد، لأنها كانت تبقيني معظم الأحيان في المنزل، أو نخرج معاً وحدنا إلى مدينة الألعاب، أو إلى «بيتزا هت» و«كانتاكي» لتناول وجبة سريعة، وعندما التقت ذات مرة بإحدى معارفها أو قريبات زوجها عرفت عني بأني ابنة أختها الموجودة الآن في ضيافتها. هل ظنت أمي أنني لم أسمعها وهي تنكر بنوتها لي؟

حينها كان ولديها، أي أخواي في الثامنة وفي العاشرة من العمر، حدث بيني وبينهما نفور منذ تلك الزيارة التي استمرت أسبوعين، ربما كانا يشعران بأنني آخذ أمهما منهما، كما شعرت أنا دائماً بأن أمي مأخوذة مني. هذا التنافر بيني وبينهما، ظلّ موجوداً بلا سبب واضح، كانا يتعاملان معي ضمن إطار الواجب والأمر الواقع، وكنت لا أرتبط معهما بأية مشاعر إخوة حقيقية، كنت أحس نحو زين وهاديا برباط أوثق من رباط الدم الذي يجمعني بهما.

ما زال البيت على حاله منذ وفاة جدتي، لم أغير مكان أي شيء، جهاز التسجيل الذي كانت تضعه قرب التلفزيون وتستمع من خلاله لآيات القرآن ما زال في مكانه، لم أفكر بنقله إلى غرفتي أبداً، رغم طلبي منها ذلك وهي حية.

طوال حياة جدتي لم أرها مشغولة أبداً بتغيير الأثاث، أو بنقله أو استبداله، كانت تنهمك فقط في التنظيف والتلميع بتحريك الأشياء من مكانها وإعادتها إلى ذات الأماكن، كما لو أن الأشياء منذ الأزل وجدت في بيتها على هذا الشكل وستبقى، ربما لأن جدتي لم تنتقل إلى بيوت أخرى منذ انتقالها بعد موت جدي من الجنوب إلى بيروت لتحيا مع أولادها، أبي وعمي سامح وعمتي رجاء، رغم كل الحروب التي مرت

fb/mashro3pdf

والتـي عاصرتهـا جدتي والتي لم أشـهدها أنا، فإن أجزاء مـن بيتنا كانت تتهدم أو تحترق، فيعاد بناؤها وترميمها، ويعاد وضع الأشـياء مكانها. لم أعرف بيتاً آخراً لي غير هذا البيت، البيت الذي سكنته مع أمي وأبي قرب دوار المطار لا أذكره بوضوح، الآن أذكر الشارع فقط، ولا أذكر تفاصيل البيـت الداخلية، حتى في العام الذي سـبق انفصالهما، كنت مقيمة دائمة عنـد جدتي، هي التي كانـت تصطحبني إلى المدرسـة، وتقوم بإجراءات التسـجيل، وكل التفاصيل الأخرى التي تتعلـق بحياتي اليومية، أنا الطفلة الصغيرة التي لم أفقد والديَ، لكنني عشت كما لو إنهما غير موجودين.

اختلفت الصباحات بعد موت جدتي، صار صوت التلفزيون يرتفع بدل جهاز التسـجيل الذي يتلو سـورة طه أو يوسف لمدة ربع ساعة عند مطلع كل صبح، صرت أشـرب النسـكافه وآكل البسـكويت بـدل تناول فطور منوع من اللبنة والجبنة البلغارية أو المناقيش بزعتر.

لما صرنا أنا وأبي وحدنا في البيت، وقبل رحيله هو أيضاً، اكتشفت كم كنا غريبين عن بعضنا، من حواراتنا المقتضبة، من تضارب مواعيدنا، فـلا لقاء يحـدث بيننا على فطور أو غـداء، وفي المسـاء كان يذهب إلى فراشـه بعد نشـرة الأخبـار تماماً. ربما نشـرة الأخبـار المسـائية هي التي كانـت تجمعنا فقط، وكان الحوار عن السياسـة ينتهي دومـا بتعليقه "رح تضـل هالبلد خربانـة لأنه الـكل فيها عامل زعيـم" ثم يتوجه إلـيَّ قائلاً: "تصبحي على خير ندى".

بعـد موتها، عرفت أي جـدار لامرئي يقوم بيننا، فـلا أنا أتمكن من عبوره والتحاور مع أبي ببسـاطة، ولا هو تمكـن يوماً من ذلك. في نهاية كل أسـبوع كان يترك لـي مصروفي بجانـب التلفزيون، كنـت أخجل أن أطلب منـه المال، جدتي كانت دوماً صلة الوصل بيننا، كما كانت جدتي

fb/mashro3pdf

أيضاً صلة الوصل بيني وبين أمي في سنوات سفرها الأولى، عندما كانت تتصل بي على الهاتف، كانت تسمح لي بمكالمتها سراً عن أبي، وتطلب مني أن لا أبوح لأحد عن هذا السر، عندما كبرت قليلاً أدركت أن أمي كانت ترسل لي مبلغاً شهرياً، تحوله باسم جدتي عبر أحد البنوك، من المؤكد أن أبي كان يعرف ويتجاهل، وأن جدتي كانت تعتبر هذا المبلغ أقل ما ينبغي على أمي فعله أمام تخليها عني.

لم يكن أبي ينظر في وجهي مباشرة، كانت عيناه تفران كي لا يحدق في وجهي وعيني. لا أعرف إن كان يتذكر في ملامحي خذلان أمي وهجرها له، أو جنون عمتي الذي ظل يخيفه حتى وفاته.

في الصباح كان يستيقظ في السابعة يتناول فطوره في المطبخ بشكل سريع، في السابعة والنصف يغلق الباب بهدوء ويمضي إلى عمله. كنت أستيقظ في العاشرة، وأبدأ في الاستعداد للذهاب إلى الجامعة، كانت محاضراتي تبدأ في تمام الثانية عشر. يعود هو في الثانية والنصف، يتناول غذاءه وينام حتى الخامسة، أصل أنا إلى البيت في الخامسة والنصف أو السادسة حين يكون هو غادر البيت أو على وشك المغادرة. أحياناً كنت أجد على طاولة المطبخ طبقاً فيه عدة قطع من "البفتاك"، أو "الكفتة" المقلية بشكل سيئ، أو "فروج مشوي" جاهز، وطبق آخر فيه قطع من البندورة والخيار، وعلبة من الحمص أو الفتة اشتراها من جاره الفوال.

كنت في ذاك الحين أجهل كل شيء عن الطبخ لذا ظلت أطباقنا مختصرة وجافة، إلا من حساء خضار أو أرز مع بعض البازلاء، الطبخة الوحيدة التي أتقنت صنعها، كنت أجتهد أحياناً لصنع بعض وصفات الشيف رمزي التي أسجلها حين يعدها على الشاشة، وما إن أشرع بتنفيذها حتى أكتشف أنها وصفة معقدة، فلا تخرج من تحت يدي متقنة

fb/mashro3pdf

الصنع. لكن مع مرور الوقت وإحساسي المستمر بالطعام الباهت الذي نشتريه من السوق، حاولت تعلم الطهو، أيضاً بعد علاقتي مع محمدو ومراقبتي لتفاصيله وللأشياء التي يحتفي بها، وكيف يتعامل مع الغذاء كشيء أساسي من يومه، كان يقول لي أثناء إعداده الطعام "ليس المهم ما نأكل،المهم كيف نأكل". تغيرت وجهة نظري، وصرت استغرق وقتاً لا بأس به في الدخول إلى الإنترنت والتعرف على الطعام الصحي، وطرق طهوه المختلفة.

في نهاية الأسبوع، يوم الجمعة، كان أبي يذهب لإحضار عمتي من المستشفى حين تكون في حالة جيدة تسمح لها بالمغادرة، تظل معنا حتى الاثنين صباحاً، ثم يعيدها إلى المستشفى قبل ذهابه إلى عمله. في الأيام التي تتحسن فيها حالتها العصبية ويأذن لها الطبيب بالبقاء في المنزل كانت ترفض العودة إلى المستشفى، تبكي وتستعطفنا وتقسم أنها لن تقوم بأي عمل يزعجنا، ترجونا أن نتركها معنا لأسبوع أو أكثر، لكن أيا منا لم يكن واثقاً أن إحدى نوبات جنونها لن تظهر في لحظات غيابنا.

أنا وأبي كنا ندرك جيداً أن بقاءها معنا في البيت يعني حتمية وجود أحد منا معها طوال الوقت لمراقبة أي طارئ على سلوكها يؤشر لبدء تدهور الحالة.

البدايات الخفيفة للحالة تكون مع زيادة كلامها عن الحد المعقول ووصوله لثرثرة مضنية، وتذكر تفاصيل قديمة، ثم أرق طوال الليل مع طواف في البيت وبعثرة الأشياء والقيام بتصرفات غير متوقعة، فيما بعد تبدأ القيام بسلوكيات مفاجئة ومخجلة كأن ترتدي ثيابا قصيرة ومكشوفة الصدر، وتضع مكياجاً فاقعاً، وتقوم بحركات خلاعية، أو تقف على

fb/mashro3pdf

الشـرفة وتعمـد إلى مغازلـة الشـبان الصغار، وحيـن تتدهـور حالتها في نوبـات مفاجئة كان رأسـها يرتجف في حـركات مخيفة تجحـظ عيناها، يسـود وجهها، ويتدلى لسـانها إلـى الخارج، ثـم تبدأ نوبة هيجـان عنيفة وتكسـير لكل مـا تقع عليـه يداها، هذه النوبـات لم تكـن تتوقف إلا مع جلسات العلاج الكهربائي الذي يتركها خائرة القوى لأيام.

أنا وأبي كنـا نخاف من هذه الحالات، ونخاف حدوثها حين تكون عمتي معنا، وحدها جدتي كانت المرأة القوية القادرة على الإمساك بزمام الأمـور والتصرف بتعقل وحـزم، لم تكن تخضـع لتأثير عمتـي العاطفي عليها عندما تطلب منها البقاء في البيت وعدم العودة للمستشـفى، كانت تراقبها عن كثب وتدرك جيداً الوقت المناسب لبقاء ابنتها في البيت.

طـوال حياتها سـعت جدتـي أن تجنبنـا جميعاً هـذا القلـق، كانت تتصـرف وحدها، حتى أبـي وعمـي كان دورهما ثانوياً فـي رحلة مرض عمتي، يـكاد دورهما ينحصر فـي تأمين نفقات المستشـفى، وفي إيصال عمتـي إليهـا وأخذهـا منهـا، لـم يكـن أي منهمـا يذهـب لزيارتهـا فـي المستشفى، وحين تأتي إلى البيت كان أبي يجلس معها قرابة ربع ساعة، يتحدث معها كما لو أنها طفلة صغيرة، يبالغ في إظهار عطفه عليها، كان بينهما ما يزيد عن عشـرة أعوام، عمي سـامح كان يكبرها بخمسـة أعوام فقط، وكان يأتي لزيارتنا مرة كل أسـبوعين هـو وزوجته وأولاده الثلاثة، كانـت زيارتهما مختصـرة غالباً لا تتجاوز سـاعة واحدة، الانسـجام كان مفقـوداً تمامـاً بيـن جدتي وزوجـة عمي، ولم تكـن أي منهمـا تتردد في إظهـار ذلك أمـام الجميع، جدتي تمـرر عبارات عن الأصـول الوضيعة، وكيف ينتج عنها كل سلوك شـائن قاصدة بذلك زوجة عمي التي تنحدر من عائلة ذات سـمعة مشبوهة، وزوجة عمي لا تبادر أبداً في إظهار نوايا

fb/mashro3pdf

حسنة بل لا تحرص حتى على إخفاء انزعاجها من هذه الزيارة. حملت إرث هذه العلاقة المتوترة، وظلت زوجة عمي تتعامل معي ببرود يصل إلى حد الجفاف، كما لو أني "ابنة جدتي" لا حفيدتها. علاقتي مع أولاد عمي أيضاً ظلت محايدة لأنهم يخافون من توبيخ والدتهم لو تواصلوا معي، فقد كانت تواصل تنبيههم أنني بنت أعيش وحدي، وأنهم شباب، فلا يصح التبسط في علاقتهم معي. نشأت بيني وبين حسان ابن عمي الأصغر ألفة ومودة فطرية نتيجة وجود اهتمامات مشتركة، كنا نتبادل سيديهات الأفلام والكتب.

أظن أن عمي حرص على تحديد علاقته بي لأنه كان يخشى أن ألقي بمسؤولية ما على عاتقه. عندما كانت جدتي حية كانت تجبره على المساهمة في نفقات البيت، لذا ظلّ يحس أن كل من يسكن في هذا البيت يشكل حملاً عليه، هذا بالإضافة إلى رغبته الأكيدة وغير المعلنة أن ينتهي بي المطاف إلى الزواج أو السفر ليضع قبضته على البيت.

بعد موت جدتي، ثم موت أبي، وانتقال مسؤولية عمتي إليَّ، ظلت العلاقة مع عمي على ذات الوتيرة، إلا أن زياراته لي صارت تتباعد أكثر وأكثر حتى صارت في المناسبات فقط، في عيد الأضحى، في العيد الكبير، بعد ليلة رأس السنة الميلادية، هكذا تقلصت لقاءاتي به، فلا أنا كنت أعرف عنه شيئاً، ولا هو يحرص على معرفة أي أمر من شؤوني. لم يعرض عليَّ بعد موت أبي القدوم للعيش معهم، لم يقترح عليَّ مجرد اقتراح، بل أرسل لي عبر زوجته أنه كان سيفعل لولا وجود أولاده الثلاثة في المنزل، فمن غير اللائق أن أحيا بينهم. وكل ما كان يقوم به نحو عمتي هو الذهاب إلى المستشفى وسداد المصروفات، في بعض الأحيان كان يرسل لي المال مع أحد أولاده ويطلب مني أن أدفع

fb/mashro3pdf

المصاريف لأنه لن يتمكن من الذهاب.

أذكر في إحـدى المرات عندما طلب منه أبـي أن تبقى عمتي عنده حتى نهاية الأسـبوع لأنني أسـتعد للامتحانات ولأنه سـيذهب إلى عمله لأن رصيـد إجازاتـه انتهـى، بأنـه رفض فـي البداية ثم قبـل على مضض تحت إلحاح أبي.

حتـى عندما تكـون عمتي فـي حالاتهـا الطبيعيـة، كان لهـا عادات خاصة، من الصعـب قبولها بسـهولة، كانت تدخن كثيـراً، وتترك أعقاب السـجائر فـي أي مـكان، وكانـت تـأكل بـلا منطـق، وتلتهـم الحلـوى والشوكولا بشـراهة، تنام لسـاعات طويلة من النهار، وتستيقظ في الليل، هـذه التصرفات التي لـم نكن نتوقف عندهـا لا أنا ولا أبـي، ولا جدتي عندما كانت حية تجنباً لأية اسـتثارة عصبية من الممكن أن يسببها كلامنا مـع عمتي. لكن الأمر مختلـف في بيت عمي، كنا نعـرف أنه لن يحتمل شـقيقته وما تقوم به، لا هـو ولا زوجته، ولا أولاده، كان يحاسـبها على أنهـا إنسـان طبيعي وعاقل تمامـاً، لذا كانـت زوجته تنهرها علـى تناولها الطعام بكثرة، أو تسيء إليها أمام جاراتها.

حدوث مثـل هـذه الاسـتثارات العصبيـة كانت تـؤدي إلـى قيامها بسـلوكيات أكثر عنفاً، كما فعلت حين رفعت سكين المطبخ على زوجة عمي تهددها بالقتل.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

في بيت محمدو كنت أغرق بمراقبة تفاصيله، أشياء صغيرة يزداد شغفي بها كلما رأيته منهمكاً فيها، طبق الخضراوات الصينية الذي كان يعده مع النودلز، وصدور الدجاج المنقوعة بالخل والفلفل الأخضر، شراب الليكور بطعم الشوكولا، طلبه مني أن أترجم له أغنية فيروز "يارا اللي جدايلها شقر"، قراءتنا معاً من ذات الكتاب، مشاهدتنا فيلم عبر شاشة الكمبيوتر، رقصنا على أغنية الشاب خالد عايشة وهو يغنيها لي مستبدلاً اسم عايشة باسمي.

كان في علاقتنا تفاصيل كثيرة، جاء شغفي بها من غرقي في استقراء رؤيته للحياة، هو الذي يمارس الحياة بسهولة لم أعرفها مطلقاً، يسافر ويتنقل بين بلد وآخر، مراكماً ثقافات متنوعة في داخله.

موسيقى وأغنيات بوب مارلي التي يشغف بها ولا أحب سماعها تصدح في بيته، كان يترجم لي الأغنيات، فيما أنا أقول له إن اللحن يسبب لي التوتر، وإنني لا أحب من أغنياته سوى أغنية:

«No Woman No Cry»".

حين قلت له ذلك أمسكني من يدي..

وقفنا قرب جهاز الكمبيوتر، حرك الماوس ثم فتح صورة كبيرة لبوب مارلي، وفي أسفلها عبارة مكتوبة باللغة الإنكليزية تقول: «كانت الموسيقى في نظري ولا زالت هي الحرية.. أغني لأشعر أني ما زلت على قيد الحياة.. أغني لأعلم الناس كيف يصنعون ثورة وكيف يرفضون أن يكونوا عبيداً لبشر مثلهم".

fb/mashro3pdf

أبتسم له.. أتساءل في داخلي "لماذا جعلني أقرأ هذه العبارة تحديداً؟"

أقول له إنني شاهدت على التلفزيون برنامجاً وثائقياً عن حياة بوب مارلي، وكيف عانى اليتم والتشرد في بداية حياته، وفي نهايتها تغلغل السرطان في جسده حتى فتك به.

هكذا لا يظل في حياتنا إلا العناوين العريضة للأحداث، الأيام المتتالية المتشابهة تختفي ولا يظل إلا عصارتها.

يبتسم محمدو وأنا أسرد عليه معلوماتي التي يعرفها، نضحك سوياً وهو يقول لي إنني أنفع لتقديم برنامج تلفزيوني عن حياة النجوم لأنني أجيد تقديم معلومات قليلة بأسلوب شيق يحرض على المطالبة بالمزيد. يضع محمدو يده على ذقني، يرفع وجهي إلى أعلى ثم يسألني إن كنت أحب جينيفر لوبيز.

"كممثلة؟"

قلت له يومها إني أحب تمثيلها فقط، حكيت له عن حبي لفيلمها مع ريتشارد غير.

قال إن من ألطف الأشياء التي يحبها بي احتفاظي بشاشة سينما في عقلي، شاشة تبث باستمرار من دون توقف. قلت له إنني أحب جينيفر لكنني لا أراها جميلة، إنها تتمتع بجاذبية فقط، أبدى محمدو اندهاشه ليذكرني أنها من ضمن أكثر نساء العالم إثارة. في تلك اللحظات تماماً.. تذكرت بدانتي التي كانت قبل أعوام... بثور وجهي.. شعر حاجبي الكثيف... قلت له بحدة ماذا تعني الإثارة؟ تستفزني هذه الكلمة، هل على المرأة المثول إلى الأبد إلى مقاييس محددة مفروضة عليها كي تكون مثيرة، ثم مثيرة لمن وكيف؟ أليس مفهوم الإثارة نسبياً

fb/mashro3pdf

ومتغيـراً. يومهـا كنـت أتكلم بانفعـال واضح كمـا لو أننـي أحاكمه على مقاييـس يفرضهـا العصر، قـال لي إن ما هـو مفروض مـن الخارج ليس من الضـروري أن يكون جميلاً، أمسـكني من يدي وجلسـنا قرب جهاز كمبيوتـره، أجرى بحثـاً عن صـور لنيكول كدمـان اسـتعرضناها معاً، ثم سـألني عن رأيي، قلت "جميلة". قال لي إنه يراهـا عادية للغاية.. دمية.. مجرد دمية ملونة بلا حياة.

كانت سيلين ديون تغني.

ذاك المسـاء بكيـت.. ضربت صدره بيـدي، بللت دموعـي قميصه المفتوح.

مسح على شعري بحنو وهو يقول:

«Je t'aime Nada".

* * *

كلما تذكـرت كيف كنـت أندفع بشـغف للقاء "محمـدو" يعاودني ذات التوق للقائه.

مؤسـف حين نعـي متأخراً قيمـة الأشـياء. يكون الوقـت قد مضى بعصبيـة وجنـون وتركنـا وحدنا نكـرر بغبـاء فعـل التذكر مجـدولاً بندم خفي.

حين نترك لحظات حقيقية تمر من أمامنا ونحن ننظر ببلاهة ونسأل: "أحقاً هذه هي الأحاسيس الحقيقية التي يتكلمون عنها؟"

حين يسـقط الحب بين أيدينا ويكون شـغفاً فلا نصدقه لأننا لا نثق بأنفسنا، ونخاف أكثر مما نحب.

ثم ماذا يبقى لنا؟

fb/mashro3pdf

مجرد عناوين عريضة للحكاية،

ربما أعي الآن أن كل ذاك الترقب والقلق، كل تلك الخشية، كل التردد، والاحتمالات المفتوحة على كل شيء وعلى لا شيء انتهت حتماً.

انتهت لأنني لم أستطع حسم أمري في اختيار أياً منها. فكان أن اخترت الوحدة.

الوحدة في بيت لا يسكنه سواي. الوحدة في بلد ليس لي فيه سوى "عم" لا يذكرني إلا وفق تواريخ الأعياد في الرزنامة. و"عمة" مريضة تجبرني على التعقل في حالات صحوها كي أُشرف على رعايتها، وفي حالات غيبوبتها تطلق أشباحا مرعبة ليهاجموا ليلي.

ماذا انتظر الآن إذن... إن لم أثق بحكايتي تلك، بكل ما فيها من حسية فطرية واندفاعات مجنونة.

لم اخترت البقاء هنا إذن؟

أعرف أنني لن أتمكن من الفرار ربما لأن ما يربطني بالمكان كان أكثر قوة وتجذراً مما يجمعني بالأشخاص... من هم الأشخاص... أصدقاء، اتضحت حياتهم وصار لكل منهم عالمه. هند ستسافر مع زياد، زين سيعقد خطوبته قريبا، هاديا لن تتردد في الزواج والسفر مع أول عريس ثري.

هل كنت أنتظر أن يطل الحب مرة ثانية ليقف ملوحاً أمام نافذتي، أم أنني كما أفعل غالباً سأترك الحياة تسير وفق ركودها المعتاد، وعوالمي المنحسرة عن الواقع، المفتوحة على الافتراض.

لماذا أفكر دائماً في علاقتي مع "محمدو"؟

fb/mashro3pdf

ربما لأنه ساعدني على اكتشاف ذاتي... ربما.

لقد أدركت مدى فتور علاقتي مع كامل بعد معرفتي بمحمدو. كنت أحس نحوه بمزيج من العطف والتأنيب لأنني أتخلى عنه بلا سبب محدّد، هو أحس بتحولي عنه، وتملصي دائماً من بقائنا على انفراد، لكنه لم يواجهني بأي شيء، تأخرت المواجهة حتى شهر أيلول بداية التحاقي بالجامعة، بعد عودة محمدو وتصاعد علاقتنا.

عندما رجع محمدو من السفر، هاتفني، كنت في ذروة الفرح، وحين طلب لقائي وافقت فوراً، التقينا في اليوم ذاته عصراً، جلسنا في مقهى"شاي بالنعناع" قرب الجامعة الأميركية، في ذاك اللقاء كانت المرة الأولى التي قبلني على خدي عند مصافحتي، ظلّ ممسكاً بيدي طوال جلستنا، حكى لي أنه انفصل عن خطيبته، وما يربطه بي ليس عابراً، الكلام بيننا كان كثيفاً، منساباً، عابقاً باللذة مثل الرغوة البيضاء في أعلى فنجان الكابتشينو.

كنت موقنة أنني لن أتزوجه، وأن علاقتي به لن تتعدى أكثر من شغف متهور، لكن وجوده كان حدثاً قوياً في حياتي مكنني من قراءة أحاسيسي نحو كامل... كامل الذي تربيت معه وكبرنا سوياً، لزمني حدث قوي مثل علاقتي مع محمدو ليكشف عما يربطني به، وأن ما توهمته حباً ليس إلا علاقة ألفة واعتياد بالنسبة لي..

ربما ساعدني محمدو على اكتشاف جسدي، وعلى تعلم لغة الحواس، وطريق المسامات الدقيقة التي تصل الأحاسيس بالجسد، حين يمسك باطن يدي كان يقول لي "ظاهر اليد حساس للغاية، أما هذه المنطقة، فإن درجة الحساسية فيها أقل كثيراً، لكنني لو وضعت باطن يدي على أعلى كتفك، أو تحت العنق قليلاً، ستحسين بها بعمق أكثر

fb/mashro3pdf

مما لو تلمستك بظاهر يدي".

كان يحكي لي عن اكتشافاته الحسية لخفايا الجسد، وكنت أستمع إليه بانبهار، أشياء لم أستمع إليها من قبل، ولم يكن من الممكن لكامل أن يحكي عنها أبداً في يوم ما.

ليس بإمكاني نسيان محمدو، فقد كان أول رجل عرفته عن كثب، ما زلت أذكره بكثافة، أذكره حين يتلمس عنقي، يضع أصابعه عند وسط الطوق تحت النبض تماماً يهمس في أذني وهو يحرك سبابته بشكل دائري سأسمي هذه الدائرة "ندى الحياة"، تزداد لمساته بطئاً، سواد ليله يغمرني، كما لو إن عينيه تعبران جلدي وتكشفان ما وراء سياج أوردتي، يمر بلسانه على أذني قبل أن يعض أرنبة أنفي ويلتقط شفتي.

مرّ عام على آخر مرة التقيته فيها بالصدفة. كنت قد أخبرته بقراري إنهاء علاقتنا، لم يلح عليَّ كثيراً، حاول استمالتي، ودفعي للعزوف عن قراري، لكنه لم يضغط عليَّ مما ساعدني على الاستمرار في عدم رؤيته. ذات صباح حين كنت أسير في شارع "جاندارك"، كنت على موعد مع هاديا في كافيه نجار. رأيته على الجانب الآخر من الرصيف،كان يرتدي قميصاً ناصع البياض مع بذلة رسمية سوداء تزيد من بروز استقامة قامته، سلّم عليَّ وقبلني، أمسك بيدي طويلاً، كدت أضعف في تلك اللحظات، كدت أقول له خذني الآن معك، لكنني تماسكت في محاولة لصياغة أسئلة عادية. كنت أرتدي فستاناً أبيض. قال لي قبل أن أذهب:

«You are so pretty NADA».

ثم ابتعدنا.

كانت آخر جملة قالها لي.

fb/mashro3pdf

هجرت محمدو بلا أي تبرير أو عذر مقنع بالنسبة له، انقطعت عن

زيارتـه، وعن الرد على اتصالاته. حينها كنت أعد الأسـباب التي تمنعني

مـن مواصلـة علاقتنا، أكررهـا على ذاتي اكتبهـا عبر صفحـة بيضاء على

جهـاز كمبيوتري، أدون أسـباب هجري له وأعيد قراءتها كلما أحسسـت

برغبتـي في التراجع، وكلما أحسسـت بذاك الشـغف والهذيان الذي كان

يقودني إليه كل مرة.

علاقتنـا كانت علاقة تلامـس بين عالمين،مجـرد تلامس لا أكثر...

تلامس بين عالمين وقفت بينهما عدة حواجز، فلم يتم التداخل بينهما.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

اتصلت بالمستشفى صباحاً سألت عن قريبتنا "هنادي" لأطمئن على حالة عمتي "رجاء" قبل أن أذهب لزيارتها. قالوا لي إن "هنادي" لم تأت هذا اليوم. اتصلت للسؤال عنها في البيت، ردّت عليَّ وهي تصرخ بصوت عالٍ:

"الله لا يسامحه ولا يوفقه ضربني على عيني ومزرقة وما قدرت إضهر من البيت طلبت إجازة ليومين".

أحس بقشعريرة وأنا أتخيل وجه هنادي الأسمر الغامق، وعينها المزرقة من آثار صفعات زوجها التي تتكرر كل عدة أشهر حين تضيق به الحال لتأمين المال لشراء سجائر الحشيش، وتعجز هنادي عن تزويده بالمال، وكما لو أنني صرت جدتي فاندفعت لتشكو لي، وأنا أكرر: "الله بيصبر، معلش شو بدك تعملي علشان الأولاد". هذه هي العبارات التي كنت أسمع جدتي تقولها لها في تلك الظروف. أمضت هنادي شبابها كله، وجزءاً من كهولتها وهي تعمل في المستشفى، أنجبت ولدين، واستمرت في الحياة مع زوج كان في البداية "سكيراً" ثم تدرج نحو إدمانات أخرى، تعرف هنادي عنها بأنها "سيجارة حشيش" وبس.

وأنا صغيرة أذكر أن هنادي كانت تهرب عند جدتي كلما ضربها زوجها، فيما بعد عندما صارت حوادث الضرب تتكرر وبالتالي تتكرر معها مرات الفرار منه إلينا، قالت لها جدتي بلهجتها الحاسمة الجازمة:

"هيك ما بيسوى يا هنادي، هيدا جوزك ابن حرام، يعني أنت عم تطفشي منه باليومين والثلاثة، بكره بلفق عنك شي قصة، وما بيقول

fb/mashro3pdf

إنك عم تجي لعندنا، بيتهمك بشي حدا وبتصير فضيحتك على صنوبر بيروت، كني ببيتك وضبي ولادك وقعدي، واعتبريه هو متل الكلب بالبيت موجود ومش موجود".

من يومها لم يتكرر هروب "هنادي" وإن ظلت تتردد على جدتي للشكوى من مصائب زوجها. كان بينها وبين جدتي اتفاق ضمني على الخدمات المتبادلة، "هنادي" ترعى عمتي في المستشفى وتؤمن لها بعض التسهيلات التي لا يسمح بها لغيرها من المريضات، وجبة إضافية، سجائر زيادة عن الكمية المسموح بها يومياً، وأشياء أخرى... أما جدتي فكما أظن أنها كانت تمد هنادي بمبالغ مالية قليلة بين حين وآخر.

«كنت بدي إسألك عن عمتي إذا صارت أحسن؟» قاطعتها حين وجدت أن حكايات زوجها لن تنتهي بل صارت تتشعب لتعود إلى تفاصيل الأشهر الماضية.

يعود صوت هنادي طبيعي وهي تتذكر مهنتها كممرضة، وتتذكر أنني أتصل لأسأل عن أمر هي تعرفه، وبالتالي هي مهمة عندي لأنها تساعدني في موقف ما.

«عمتك بعدها تعبانة، يعني وعيت وكل شي، بس مش مركزة، لا ما تروحي وتشوفيها تعبانة قلبك رح يوجعك عليها... يي لو تشوفي كمان شو ضعفانة، صارت جلدة على عضم، ابقي جيبيلها الأسبوع الجاي معك شوية أكل يغذوها شوي مسكينة ما عاد إلها حدا غيرك، بكره كله بتلاقيه بطريقك، الله يبيضلك حظك ويستر عليكي ويبعتلك ابن الحلال...».

عند هذا الحد كان من الضروري إنهاء الحوار، فقد عرفت ما يجب معرفته. وصارت عبارات هنادي الأخيرة تسبب لي نفوراً يتصاعد

fb/mashro3pdf

بحدة... تمكنت من الانتهاء من الإصغاء إليها بصعوبة شكرتها وأقفلت السماعة بسرعة، يغمرني إحساس بالرغبة بالركض بعيداً جداً.

* * *

رنّ جرس الباب. كانت نجلا، جلست على أقرب مقعد في الصالون، عيناها مشبعتان بالدموع، واصلت البكاء وهي تشكو من عبدو، تقبض على مخدة صغيرة، تضعها في حضنها تشد عليها، وتنهمر في بكاء متواصل، وجمل متقطعة مفادها: "خلص ما عاد فيي... زهقت.. مليت من هالعيشة، هو بوادي وأنا بوادي، وكله على جنب وأمي وبيي اللي حسموا القصة إنه ما في تفكير بالطلاق لو شو ما صار، عبدو ما في متله بالدنيا، وأنا اللي مش منيحة".

لم أعرف ماذا عليَّ قوله، رددت عبارات تقليدية، ونصائح خائبة عن محاولة التفاهم، لكن يبدو أنها لم تقنع نجلا، مسحت عينيها بعصبية، ثم وقفت معلنة أنها ستذهب الآن. حاولت أن أستبقيها، لكنها أصرت على المغادرة من دون أن تشرب قهوتها.

فتحت جهاز كمبيوتري، كان بي رغبة لمشاهدة صور أمي في أيام صباها.

ربما لم يكن ذنب أمي أنها أنجبتني وهي في الثامنة عشر من عمرها، كما لم يكن ذنبي.

أتفرج على صورها القديمة عبر جهاز كمبيوتري، الصور الجيدة التي احتفظت بها وأجريت عليها معالجات لتبدو أكثر وضوحاً، صور بعضها بالأسود والأبيض وبعضها ملون. أراها فتاة حلوة تبتسم للحياة. في إحدى الصور هي وأبي متعانقان عند الخصر قرب صخرة الروشة، وفي صورة أخرى ترتدي "ميني جيب" أبيض وتجلس على حافة السور

fb/mashro3pdf

البحري وترفع يدها ملوحة لأحد ما، لمن يا ترى هل لأبي أيضاً؟ في صورة ثالثة يجلسان في أحد المطاعم وأمامهما أطباق طعام كثيرة. تبتسم للكاميرا، وتضع يدها على كتفي وأنا أجلس على كرسي بجوارها أرتدي معطفاً أحمر في حوالي السنتين من عمري. أما هو أبي ففي يده سيجارة، ونظرة عينيه رائقة لكنها لا تتجه مباشرة للكاميرا بل يتجه جزء منها نحونا.

الزمن أكثر قسوة وغموضاً مما نتوقع.

كيف من الممكن لمن يرى هذه الصور أن يخمن أنهما سيفترقان بعد أعوام قليلة؟

جدتي لم تكن تأتي على ذكرها بالسوء كانت تقول:

"كله من الحرب، بعد الحرب، بعد موت جدك وخالك، أمك ما طاقت تبقى ببيروت، وبيك ما رضي يسافر معها، بقيت تبعتله كتير ليروح عندها، هو رفض، طلقها، وما خلاها تاخدك معها".

ظلت أمي بالنسبة لي رغم غيابها مخلوقاً جميلاً، كائناً ضعيفاً وهشاً، حتى خلال انشغالها بعمليات التجميل، كنت أعرف أنها تتمسك بأي شيء يمنحها القوة، لكنها لم تكن قوية أبداً، رغم زواجها من رجل ثري، وإنجابها ولدين، بقيت المرأة الشابة الهاربة وحدها من الحرب.

عمتي في لحظات تعقلها كانت تكذِّب كلام جدتي حين تسمعها تتحدث عن أمي، تتهمها بالأنانية والجشع، وبأنها تركت أبي لتبحث عن زوج آخر ثري، لكن جدتي تقول لها:

"حرام عليكي ماجدة بعمرها ما كانت طماعة، إنتي طول عمرك ما بتحبيها". تغتاظ عمتي وتسكت، أحس أن هناك غيرة خفية لسبب ما لا أعرفه ولا يصرح به أحد.

fb/mashro3pdf

بعد وفـاة جدتي بأقل مـن عامين مات أبـي، مات بالطريقة نفسـها التي ماتت بها جدتي.. توقف قلبه عن العمل.

هكذا كان البيت يتناقص.

ليلتها، هزتني عمتي وأنا نائمة في سريري، قالت:

"تعي شوفي بيك".

كانت السادسة فجراً، وكان بارداً كالثلج.

قبـل يومين كان قد عاد مـن عمله متعباً، مصابـاً بأنفلونزا حادة، لم ينزل عصراً إلى "المقهى" ليلعب "طاولة"، ولم يشرب في المساء كؤوس العرق، ظـلّ طريح الفراش لأيام ثلاثة، صار الطبيـب يزوره، وتبدو على وجهه ملامح غامضة، ربما بدا أكثر غموضاً بالنسـبة لي، وهو يسـأل أبي إن كان يتعاطى شيئاً ما، نفى أبي بهزة من رأسه، سألت أنا:

"شي متل شو يا دكتور؟"

لكنه لم يرد، ناولني ورقة مكتوب عليها التحاليل المطلوب إجرائها غداً، أخـذ حقيبته وخـرج من بيتنـا للمرة قبـل الأخيرة، وعاد فـي المرة الأخيرة مع عمي ليؤكـد لنا حقيقة موت أبي، ويكتب شـهادة وفاته بأنها "سكته قلبية" أيضاً.

* * *

بعـد موته، صارت تمـرض أكثر، نوبـات جنونها صـارت تتقارب، موتـه هزها كثيراً، لم تقو أعصابها الضعيفة علـى احتمال فقد أم وأخ في عامين. لم أقرر إعادتها إلى المستشفى إلا بعد هروبها من البيت، غافلتني صباحاً وغادرت رغم أنني كنت أقفل الباب بالمفتاح ليلاً، لكنها انتظرت حتـى الصباح وهربت، بحثت عنها أنا وزين لثلاثة أيام متواصلة، سـألت عنـد بيـوت كل الأقـارب والأصدقـاء والمعـارف التي خمنـت وجودها

fb/mashro3pdf

عندهـم، وطـاف زين في المستشـفيات وفـي الحدائق العامـة، والأماكن التي نتوقع ترددها عليها، وفي بعض الأحيان كان يقود سـيارته عشوائيا، نطوف في الشوارع الرئيسية والفرعية.

كنت سـمعت شـذرات مـن جدتـي عن محـاولات هـروب عمتي المتكـررة التي قامـت بها في أيـام صباها، لم تكن جدتـي تتركها وحيدة أبداً، لم تكن تسمح لها الذهاب بمفردها إلى أي مكان. بعد موت جدتي كنا أنا وأبي نتبادل حراسـتها بشـكل صامت. لم يكـن يزعجني وجودي معها في حالات تعقلها، كانت حنونة علي، خاصة حين لا تكون مريضة. أما مـع نوبات المرض حيـن يرتجف جسـدها كله، وتنقلـب عيناها إلى أعلى وتبيضان، حين تبدأ بتكسـير الأشياء، أُصاب برعب خانق وأتخيلها تندفع نحوي لتخنقني بهستيرية.

بعد رحيل أبي، حينما صرت مسـؤولة عنها وحـدي، ربما حاولت هي أن تكـون طبيعيـة، أن تظل عاقلة، لكـن حتى أدويـة الأعصاب التي كنت أعطيها لها ثـلاث مرات في اليوم لم تكن تنفـع لتهدئتها. في الليل كانت تقوم أحياناً لتطوف في البيت وهي مرتدية ملابس الخروج، تطلب مني أن اصحبها إلى "المنارة "أقول لها:

"الدنيا ليل يا عمتي".

تصرخ في وجهي قائلة:

"إيه وشو يعني.. إذا ليل".

وحـده زيـن الذي عايـش معنا قصـة مرضهـا، كان يسـاعدني على تهدئتهـا، كان أحياناً يصرخ فيها ويطلب منهـا الدخول إلى غرفتها والنوم حالاً. كانت تخاف منه رغم إنه لا يكبرني سوى بثلاثة أعوم. كان يمارس عليها سيطرته حتى طلوع الصبح واصطحابها إلى المستشفى.

fb/mashro3pdf

يـوم هربت لم نتمكـن من إيجادها حتـى نهاية اليـوم الثالث، كنت أجلس مع زين في دكان والده حين جـاءت إحدى الجارات وقالت إنها شاهدت عمتي في منطقة "بئر حسن".

حيـن وصلـت أنـا وزيـن، تمنيـت أن لا تكـون عمتـي. أن تكـون امرأة أخرى، ولكن السـواد الذي غطـى جلدها، ثيابها الممزقة، شـعرها المنكوش، رائحة البـول في ثيابها، تجمع الأولاد حولها، شـتائمها لهم، صراخهم عليها، خوف بعضهم منها. بالفعل كانت هي.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

يتهاوى جسدي مع نوبات الحساسية التي تتكرر، يحس الجيران بألمي المتدلي من المسامات المفتوحة على الوجع.

تتكرر العبارة ذاتها:

"لازم تبعدي شوي عن الرطوبة، طلعي على الجبل أو البقاع، هونيك الهوا ناشف".

أقرر الذهاب إلى بيت خالي أنيس في البقاع.

* * *

ناريمان ابنة خالي أنيس كانت فتاة أميل للصمت والعزلة على النقيض من أختها ناهد التي تصغرها بعامين، ربما لأن ناهد أقل وعياً بمأساة أمهما. كنت ألتقي بهما في الصيف عند قدوم أمي، نذهب لزيارتهما في «أبلح» حيث سكن خالي وعائلته من أوائل التسعينات.

أول مرة سمعت عن زوجة خالي المنتحرة حدثت حين كنا نلعب أنا وناريمان وناهد مع بنات الجيران، ولما تشاجرت ناهد مع إحداهن صرخت في وجهها الفتاة قائلة:

«إيه روحي أنت من هون، أصلاً أنت بنت واحدة كافرة... ماتت منتحرة».

أعقب الجملة عراك بالأيدي بين الفتاتين، فيما أسرعت ناريمان إلى البيت تبكي.

تزوج خالي أنيس بعد موت زوجته بعامين من امرأة لطيفة ومستسلمة فاتها قطار الزواج بأعوام كثيرة، لذا كانت تنظر إلى خالي

fb/mashro3pdf

أنيس على أنـه هبة من الله، ورغم وداعة زوجة خالـي الثانية ولطفها إلا أن الأمـر لم يكن خالياً مـن خلافات عابرة مـع ابنتيه، لقد ظلـت البنتان تتعامـلان معها بشـيء من النفـور الواضح. تجـاوز خالي بسـرعة حكاية زوجتـه المنتحـرة ولـم يبق مـن آثـار زوجة خالـي الأولى سـوى صورة صغيرة بالأبيض والأسـود ظلت معلقة في إطار صغيـر فوق حائط غرفة الجلـوس، وكما لـو أن خالـي يبقي علـى حضورهـا في تلك المسـاحة الصغيرة معتذراً عما اقترفه في حقها.

ذات مـرة قـرأت عبارة تقـول: «كـي تكون طبيعيـاً لا بـد أن تخلو عائلتك من مجنون ومجرم».

أظن أن جينـات الجنون الموجـودة عند عمتي، تسـكن في داخلي بنسـبة من النسـب. أما الجريمة فلا أظن أن حادثة انتحار «زوجة خالي» تبعـد خالي كثيـراً عن كونه مجـرم مجهول يعيـش بيننا، ورغـم ذلك لم أسـتطع كرهه أبداً، بل كنت أحمل له عاطفـة ودودة لأنني تأخرت بعض الشيء في معرفة أصل الحكاية.

يفتخـر خالي أنيـس بأنه عاش في لبنـان أيام العز، يحكـي حكاياته الكثيرة عـن لياليه فـي «كازينو فريد الأطـرش» في الجبـل، وعن معرفته براقصـة مشـهورة فـي ذاك الوقـت كانـت ترقـص أمامـه علـى الطاولة، يحكـي كيـف كان يحطـم زجاجـات الويسـكي فـي حـال تجاهـل أحد من الجارسـونات وجوده ولم يسـرع لتلبيـة طلباته. يحكي عن أسـفاره، وعن حياتـه في مصر ومحاولاته الفاشـلة في الدخول إلـى عالم التمثيل ومشـاركته في فيلم عن حيـاة «بديعة مصابني». لم يكـن هناك مبالغة في مـا يذكره خالي من مغامـرات لأن النتائج التي وصل لهـا فيما بعد تؤكد ذلك، بل أظن إنه كان يستتر على كثير من الحكايا خجلاً منها.

fb/mashro3pdf

كان المال الذي ورثه عن أبيه سبباً أساسياً في الحياة العجيبة التي عاشها، وانتهت مثل قصص أفلام الأبيض والأسود التي يحرص صناعها على تقديم العظة من خلالها وتمرير فكرة «هكذا تكون العاقبة الوخيمة لمن لا يسلك المسلك القويم». ضاعت ثروة خالي ما بين النساء وطاولات القمار، وظلت حياته مستمرة على هذا المنوال حتى ليلة انتحار زوجته.

يحكى سراً بين أفراد عائلة أمي أن زوجة خالي أشعلت النار في جسدها بعد أن شاهدته مع أختها في الفراش. كانت أختها متزوجة أيضاً ولديها ولدان وبنت، وكانت زوجة خالي تلاحظ الإيماءات المتبادلة بينهما، وتلاحظ إصرار زوجها على وجود أختها في حياتهم، لكنها لم تخمن أبداً أن يصل الأمر بينهما إلى زنا المحارم. كيف ضربت أختها عرض الحائط في كل شيء، متجاوزة علاقتها بها كأخت، ألم تكن تدري أنها تقدم على ذبحها؟ ثم كيف تجاوزت أيضاً وجود زوجها وأطفالها لتدوس بقدميها كل تلك الأشياء وتمضي في علاقة مع رجل محرم عليها؟

كانت شقيقة زوجة خالي تسكن في بيت يجاور بيت أختها لذا كان من السهل أن يتواجدا معاً يومياً، وأن يكون حضورها لبيت أختها أمراً عادياً. لكن بعد حادثة الانتحار التي لم تكشف تفاصيلها الدقيقة مطلقاً لأنها ظلت سراً بين ثلاثة أشخاص أحدهما مات، والآخر ابتعد، والثالث هو خالي الذي لن يحكي أبداً الحكاية بما فيها من ملابسات موجعة.

هاجرت شقيقة زوجة خالي إلى الكويت بعد الحادثة بشهرين برفقة أولادها وزوجها الذي لم يصدق الحكاية. وصارت تأتي صيفاً لتمضي أشهر الصيف في «أبلح». المساحة التي تفصل بين البيتين كانت حديقة

fb/mashro3pdf

صغيرة فيها سـور منخفض قـام خالي برفعـه حتى يحجب تماماً سـكان البيت المجاور في حال قدومهم.

في أمسيات الصيف يجلس خالي أنيس في ساحة دار بيته الكبيرة، ويبـدأ في غناء مواويل الميجانـا والعتابا، تتجمع العائلـة كلها حوله، بما فيها خالتـي وفاء وأولادها، كان صوته عذبا، علـى الرغم من أنه لا يردد الموال بشـكل متصل بل تتخللـه حكاية أو خبرية من أيـام وليالي زمان. يتمتع بحس عـال من الظـرف والفكاهة، يجعلك تنسـى عيوبه الأخرى، وما تسمعه عن ماضيه الغامض.

fb/mashro3pdf

اتصلت بـي هند صباحاً، أخبرتني أنها سـتعطيني مفتاح بيتها خلال سـفرها إلى قبرص، كي أسـقي شـتلات الـورد التي تزرعها في الشـرفة، وكـي أضع ماءً وطعامـاً لعصافير الكناري. قلت لهنـد إنني موجودة الآن في "أبلح"، وغداً بعد عودتي سآتي إليها مساء.

في صباح اليـوم الثاني غادرنا باكـراً أنا وأمي وخالتـي وفاء وبنات خالـي ناريمان وناهـد. كانت ابنتا خالـي ترغبان في الذهـاب إلى منطقة وسـط بيروت اسـتغربت حيـن عرفـت أنهما لم تشـاهدا "الـداون تاون" إلا فـي التلفزيون. كان خالي يفرض على ابنتيه حصـاراً مبرمجاً يمنعهما بطريقة غيـر معلنة عن إبداء أية رغبات للتحرك أبعـد من حدود الضيعة. حيـن عرفت أمي أن البنتين لم تنزلا إلى بيروت منذ كان عمرهما عشـرة أعوام، أصرت على نزولهما معنا.

* * *

الأرض مرصوفـة بحجـارة رمادية غامقة تشـبه المـدن العتيقة، كل شـيء في «الداون تاون» يشـبه القديم لكنه ليس قديماً. إنه المكان الذي كان قبل الحرب يزدحم بالأسـواق الشـعبية والمقاهي تحول إلى أنقاض بعد اندلاع الحرب الأهلية واستمر كخط تماس يفصل بين بيروت الغربية بجزئها «المسلم»، وبيروت الشرقية بجزئها «المسيحي». في هذا المكان تبرز مساحة شاسـعة كانت تعرف باسم «ساحة الشـهداء» ظلت الأشباح تسـكنها، ويخيم عليها الموت حتى إعادة إعمار وسط المدينة، وتحولها إلـى مركـز النشـاط التجـاري المرتجى لإعـادة نهضـة بيـروت. المتاجر

fb/mashro3pdf

القديمة التي دمرت خلال الحرب قامت مكانها متاجر أنيقة تحمل أسماء ماركات عالمية. قامت بعملية الإعمار هذه شركة «سوليدير» عبر شراء الأراضي من الملاك وإعادة إعمارها مع الاحتفاظ ببعض الآثار التاريخية لأغراض سياحية.

هكذا صار قلب المدينة الذي شهد مقبرة جماعية للأرواح والأموال أهم سوق تجارى في لبنان، مكاناً لا يقصده غير القادرين على شرب فنجان قهوة أو تناول وجبة من دون الالتفات لقائمة الأسعار.

التجول في «الداون تاون» يكون بالسير علي الأقدام. ركنت أمي السيارة خارجاً، نزلنا جميعاً من السيارة، دلفنا إلى وسط البلد. كان الوقت أول العصر، صوت فيروز يرتفع من أحد المطاعم المتشابهة التي تضع طاولاتها على الأرصفة وتقدم الأراجيل والبيتزا، وأنواع مختلفة من السلطات، والآيس كريم، والعصائر. ليس ثمة فروق كبيرة بينها سوى إعلان البعض عن تخصصه بتقديم الأطباق اللبنانية المحلية،أو أطباق أخرى غربية، كنا نسير ببطء، مجموعتين، أمي وخالتي، أنا والبنتين.

نمشي على الرصيف الناعم المنزلق تحت أقدامنا بخفة. طاولات المقاهي ممتدة خارج المحلات بدأت تزدحم بالجالسين طاولات متقاربة جداً حد التلاصق. هند كانت تقول إنها لا تشعر بأية متعة في الجلوس مساء في مقاهي الداون تاون. تصفها بعبارة «ما في شي إلا عجقة ودخان الأراغيل والناس بيتفرجوا على بعضن».

تركت بنات خالتي يكتشفن المكان وحاولت أن التقط الصور لأمي وخالتي وهن واقفتان في ساحة «الداون تاون» الرئيسية قرب الساعة. في الحقيقة لم يكن ما يشغلني أن التقط لهن الصور بقدر ما كنت أفكر في الفروقات الكثيرة بين أمي وأختها،وكيف سارت حياة كل

fb/mashro3pdf

واحـدة منهن في اتجاه مختلف، أمي سـافرت إلى الخليـج وتعيش حياة الأثرياء، خالتـي وفاء صارت امرأة تعيش رعب العقاب الإلهي، وتحاول باسـتمرار أن تمرر المواعظ الدينية لكل مـن تلتقي به. التقط لهن الصور وأتذكر حكاية النسـاجات الثلاث التي كانت تحكيها لي أمي – أم سمير ملخـص القصة أن رجلاً عجوزاً لديه ثلاث بنات يعملن في نسـج الغزل ويقـوم هو ببيعه في السـوق، وفي يوم مـن الأيام حين أحـس بدنو أجله اسـتدعى بناتـه الثلاث وطلب مـن كل واحدة منهن أن تنزل بنفسـها إلى السـوق لتبيع الغـزل، وهكـذا تنزل فـي اليـوم الأول الابنة الكبـرى تبيع غزلها وتشـتري لهم الطعام وفي نهاية اليـوم وهي في طريقها إلى المنزل يلحق بها النجـار ويطلب يدها من أبيها، فتتزوجـه وترحل معه، ثم تنزل الابنة الوسـطى إلى السوق وتبيع الغزل وتشـتري الطعام وتلتقي بالحداد تتزوجـه أيضاً. تلتقط (أمي – أم سـمير) أنفاسـها حين تصـل إلى حكاية البنت الصغرى التي ستبدأ معها الحبكة الرئيسية في الحكاية، إنها الغزالة الفقيرة التي سـيمر مـن أمامها موكب الأميـر... هي الفتـاة الجميلة التي سيبتسـم لها الحظ بين أختيها... وهي المرأة الحزينة التي سـتتآمر عليها أميـرات القصر ويحرضـن ضدها السـاحرات لصنـع التعاويذ والأشـربة السـحرية التي تفسـد حياتها الزوجية الهانئة. تسـتمر قصة عذاب ناسجة الغـزل الفقيرة على مدى طويل تتحول فيه إلـى يمامة تهدل حول القصر وإلـى جانـب الأمير المحبـوب. كانـت تلك القصـة من حكايـا طفولتي المميزة التي كنت استرجعها في الليالي وأبكي.

المحل الذي يبيع التذكارات اللبنانية يعرض بضاعته على طاولات صغيـرة أمـام الواجهة، لوحـات تمثل آثـار بعلبك، طرابيش، وشـراويل، ودمى تلبس الزي اللبناني القديم.

fb/mashro3pdf

نعبر أمام محل لماركة شهيرة تبيع ثياب الرياضة. تناديني أمي تسألني إن كنت أود شراء ثياب للرياضة، أرفض، أحس بالحرج لماذا تصر على معاملتي كطفلة. رغبت أن أقول لها إنه لا فائدة مما تحاول فعله... كانت تود التعويض عن غيابها بأية وسيلة.

بدأ المكان يزدحم بوجوه مختلفة، وأزياء غير مألوفة في شوارع بيروت الأخرى، إنه خليط من البشر يسترعي الانتباه في تباينه الواضح. هناك العائلات الخليجية التي تقصد المكان للتبضع، وعند إحساسها بالتعب تلجأ للراحة في إحدى المقاهي المتشابهة، هناك أيضاً السواح الأجانب الذين سمعوا عن بيروت «قبل وبعد» وجاءوا لرؤية ما سمعوا، ثم فئة قليلة من اللبنانيين معظمهم من الشباب العشريني المرفه يجد في «الداون تاون» صورة مصغرة لمدينة يبحث فيها عما تحكيه وتصوره الفضائيات وشاشات الكمبيوتر. هذا بالإضافة إلى أماكن التبضع باهظة الثمن التي لا يمكن أن يكون معنياً بها إلا فئة قليلة من الأثرياء المقيم منهم والسائح. هناك متجر «الفيرجين»، الذي يقصده كل من يبحث عن كتاب جديد أو آخر أسطوانة «سي دي». «الفيرجين» مكان يجسد الثقافة الحديثة بشكلها المتعولم والمرعب أيضاً حيث الإغواء بشراء كل ما تحلم به من الموسيقى الكلاسيك إلى آخر إصدارات دور النشر الغربية مقابل عدم التفكير بالمبلغ المالي المطلوب دفعه.

حين غادرنا «الداون تاون» ذهب الجميع مع أمي إلى بيتها الذي اشتراه لها زوجها منذ أعوام في منطقة «ساقية الجنزير» التي تعد ضمن أغلى المناطق في لبنان على مستوى السكن لقربها من «شارع فردان» ومن «الروشة» و«الحمرا»،كان بيت أمي واسعاً، يطل في زاوية منه على البحر. اعتذرت عن المبيت معهم. أخبرت أمي عن ضرورة ذهابي إلى

fb/mashro3pdf

هند لآخذ منها المفتاح لأنها ستسافر غداً. تركتني أذهب على مضض، كان في عينيها أسف على الأوقات التي تمر وتباعد بيننا. أعرف أن الحوار الحميم مفقود بيني وبينها، هناك شيء ما مكسور يمنعني من السير إليها أو التواصل معها. شيء لا أعرف كيف أحكي عنه.غادرت لأن زوجها وولديها سيصلان غداً عصراً، وستكون مشغولة معهم لأيام عدة.

كنت أفضل العودة إلى بيتي، حيث أفتح نافذتي على العالم وأراقب ما يحدث. أحسست بالحاجة إلى الهدوء الذي ألفته بعد مرور ثلاثة أيام في صخب عائلة خالي وخالتي.

* * *

الحقيبة الكبيرة التي حزمتها هند كانت مفتوحة في غرفة الجلوس. كانت هند تجمع أشياءها وأشياء زياد، علقت أداعبها بأن عليها أن تعد جهاز عروس لكنها هزت كتفها بحركة تعني أنها لا تعبأ بهذه التفاصيل.

كنت أحس بإرهاق وألم عند كتفي ورقبتي بسبب اليوم الطويل الذي بدأ باكراً.

قلت لهند إنني أعاني من تشنج في رقبتي وكتفي، طلبت مني أن أستلقي على الصوفا.

قالت:

«دقيقتين وبرجع...».

غابت هند ورجعت تحمل في يديها وعائين من الخشب، أحدهما أكبر من الآخر. وضعت على الطاولة الوعاء الأكبر حجماً كان فيه أربعة حجارة سوداء مستديرة، الوعاء الصغير فيه زيت دافئ، قالت لي:

«استرخي بدي بلش أتدرب على العلاج الطبيعي معك».

fb/mashro3pdf

"كيف يعني؟"

"رح أعملك مساج وبعدين... مش رح قول هلق بتشوفي...".

"طيب بلشي لنشوف".

بدأت هند تدليك الجزء العلوي من الرقبة الكتفين وأعلى الرأس وهي تشرح لي عن مراكز الأعصاب السبعة الموزعة في الجسم، وكيف أن كل مركز منها مرتبط بالقدم. وبعد أن انتهت من التدليك أحضرت قطعة كبيرة من القماش الأبيض وغطت بها رقبتي وكتفي ووضعت فوقها الحجارة الأربعة الساخنة، قائلة:

"هلق بتشوفي كيف رح تحسي بتحسن سريع".

"إيه بس هيدا شو اسمه هند...".

"اسمه علاج طبيعي، بدي سافر أتخصص فيه، اكتشفت أني بلاقي حالي بهالشي".

"أنا خايفة يا هند يكونوا عم يضحكوا عليكي بهالكلام هيدا...".

"بليز ندى ما تقولي هيك بتضايق جد... هيدا علم حقيقي بس مع الوقت ومع وجود الطب الحديث الناس أهملته. بتعرفي كتير من أمراضنا العصرية ممكن تتعالج بطرق بسيطة قائمة على توازن الطاقة، طاقة "اليـن واليانغ"، يعني الطاقة الموجبة والسالبة، القوية والخفيفة، ندى لو تأملت بحياتنا كلها بالفصول باختيارنا للأكل وفق الطقس بالهوا بالرياح بالشمس بالبحر لعرفتي أنه كل شي له علاقة "بعلم الطاقة" ومهمتنا الحقيقية بالدنيا إننا نفتح الطريق للتوازن الإيجابي، بتعرفي أنا بشوف إنه كل الأمراض والسرطانات هيدي اللي عم تقتحم حياتنا جاية من اختلال الطاقة وطغيان إحداهما على الأخرى، وبالتالي تكسير الخلايا، وتراكم النقط السوداء فيها لحد ما تنفجر وتصير أوراماً تدمر

fb/mashro3pdf

أجسامنا".

"يمكـن هند يكون الكلام هيـدا صح، ما بعرف، أكيـد فيه طاقة بالكـون، بس مـا بعرف إذا تحقيق التـوازن اللي عم تحكـي عنه رح يأثر فعـلاً على انتشـار الأمـراض والأوبئة والجراثيم، بالنسـبة لي أنا بشـوف إنـه كل هالأشـيا بتجي من الحروب، مـن القذائف المتفجـرة، من البحر الملـوث، مـن الأكل إللـي عـم ناكلـه ونصـه كيماويـات، مـن اللحـوم المشـكوك بسـلامتها، مـن عـودة "أنفلونـزا الطيـور" وظهـور "الجمـرة الخبيثـة"، مـن الاغتيالات والانفجـارات إللي عـم تعمل حقـد وجريمة بعقول الأشخاص، من التزمت والخوف والإرهاب اللي عم يخلق رعب مدمر عند الناس...".

"ندى إنتي مش بعيدة عن فكرتي بس أنا عم شـوف الأشـيا بشكل أعمق، ليه الوصول للحروب وللجرايم وللقتـل... من عدم التوازن، من طغيـان الطاقة السـلبية لأنـه الطاقة عنـد النـاس إللي بيعملـوا هيك مش متوازنة...".

"هند أنت عم تبسطي القصة كتير...".

"مش حكاية عم بسطها... أنا عم بحكي عن فكرة كونية كبيرة... عن التوازن إللي بيعمل سلام بالعالم كله...".

"إنتي كل كم سنة بتطلعيلي باختراع جديد... بتتذكري لما قلتيللي إنـك عشـتي حياتين مـن قبل، مـرة ببغـداد، ومرة تانيـة في أوائـل القرن العشرين.. مش عارفة وين...".

"أنـا جد مش رح خبرك شـي بعد... إيـه أنا بعدنـي مقتنعة إني عشـت بزمن سـابق، وكنت تلميـذة عند طبيـب عربي في بغـداد علمني الطبابة والحجامة ومت في سن صغير جداً، في العشرين تقريباً، ومقتنعة

fb/mashro3pdf

كمـان أنه روحـي التانية ظهرت مـن قرنيين فـي تركيا وكنـت فقيرة كتير ومـا تزوجت ومت وحيدة، وهلق أنا التجسـيد الثالث لهيدي الروح لأنه بالمرتين ما حققت إللي بدي إياه بالدنيا... كيف بخليكي تصدقي... لما رحت على تركيا السنة الماضية حسيت إني عارفة هالبلد، إني كنت فيها قبل هلق".

"يـا أختي أنا في روح واحدة وهلكانة لإني مش عم بفهم عليها ولا بتفهـم عليي.. يا هند... تركيا تغيرت أكيد.. واللي كان موجود زمان اختفى".

"إيه تغيـرت بس روح المكان ما بتتغير...شـوفي نـدى الجينات البشـرية بترحل مع الهوا، مع النبات، مع التراب، وبتنتقل من جيل لجيل وأنا متأكدة أنه حاملة جينـات المكانين هيدول... وينك يا ماما إنت بس إللي بتصدقيني..".

"إيـه أمـك بتصدقـك لأنهـا مقتنعـة بالتقمـص، علشـان هيك ما بتستغرب".

"ندى... العالم من حولنا مش هو بس إللي شايفينه، في أشيا كتير بتحيط فينا وما منشوفها".

دار بيننـا هـذا الحـوار وهند تنقـل الحجـارة وتمررها علـى رقبتي وكتفي، ثم سألتني:

"كيف صرتي؟"

"أحسن كتير... ميرسي هند... يا شافية...".

"حلوة كلمتك... الشافية..".

"إيمتى مسافرين بكره؟"

fb/mashro3pdf

"الساعة عشرة منطير على قبرص... انتبهي على العصافير ما بدي

وصيكي.. يا ويلك مني إذا صار لهن شي.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

"الشغف إن لم يكن مدعوماً بقوة جارفة لا يمكنه مواجهة الخوف وقتله".

كما لو أنني كنت في كهف تظلله البرودة.. الرطوبة.. والعتمة.

مضى علي أيام عدة منذ غادرت البيت آخر مرة.

حين خرجت إلى الشارع غمرني ضوء كثيف... لم أستطع رفع وجهي نحو الشمس، عيناي تدمعان أرغب بالانسحاب والعودة إلى كهفي، كلما أحسست بالوحدة كلما مضيت أكثر نحو عزلتي.

لماذا كلما واجهت الحياة أجد هذا الكم من العنف والخوف؟

هل صحيح أن "الإرهاب" هو زرع الخوف في نفوس الناس البسيطة؟

لولا خوف نجلا من مواجهة "عبدو" لما قتلها... لولا خوفها من تحدي المجتمع والجهر بأنها تحب رجلاً آخر ما كانت ماتت...

هل أنا أيضاً من الناس الخائفين... القابعين في كهوفهم... أعيش خائفة من الأشباح التي ستأتي إليَّ ذات يوم وتدفعني للصراخ كالمجانين، فيقرر عمي أن يضعني في المستشفى كما حصل مع عمتي... سترسل لي أمي المال، وستأتي لزيارتي خلال وجودها في أشهر الصيف، وربما لن تأتي لأن أعصابها الرهيفة لن تحتمل رؤية مريضات المستشفى، كما لن تحتمل رؤية المسنين الذين يشغلون الطابق الأول، ويخرجون للمشي في الحديقة الخلفية أو الجلوس مع أولادهم في كافيتريا المستشفى.

المعادلة التي تحكم الحياة والموت صعبة وعسيرة التفسير. يفرح

fb/mashro3pdf

الأهـل بقـدوم مولود لهـم، تغمرهم سـعادة بالغة وهـم يرونـه يكبر أمام أعينهم. فيما بعد، بعد سـنوات كثيرة سـينتظر هذا الابـن موتهم ليخففوا عنه مسـؤولية كبرهم في السـن واحتياجهـم له. معادلة غريبـة جداً لكنها مستمرة استمرار الحياة، وإن كان البعض لا يواجه نفسه بها إلا أنها قابعة في عمق ذاته.

* * *

ألـم أكن خائفة أيضاً حيـن عرض عليَّ «محمـدو» البقاء معاً، حين اقترح أن نسافر سوياً، ألم أكن خائفة من مواجهة المجتمع بعلاقتنا..؟

ألم تكن كلمـة «هاديا» ترن في أعماقي كجـرس منبه إلى ما يمكن أن يقال: «بي رح تتجوزي واحد أسود».

الخوف يدفع لخيانات كبيرة... أكبرها خيانة الذات.

والشـغف... الشـغف إن لـم يكـن مدعوماً بقـوة جارفـة لا يمكنه مواجهة الخوف وقتله.

هل كان عبدو من البسـطاء الذين مارسوا إرهابهم الخاص فتصدى لتخليها عنه بالقتل؟

لماذا قتلها؟

كيف بإمكاني عبور المبنى من دون تذكر نظرة نجلا الشاردة، وهي تميل ملتصقة بدرابزين الشـرفة شـعرها الأشـقر ونصفهـا الأعلى النحيل يبين بوضوح...

كيف بإمكانـي العبور وصوت «عبـدو» يتردد في أذني «منقوشـتين زعتر.. ثلاثة جبنة، وأربعة لحمة بعجين... زود يا حسن الحر شوي على فطاير السـبانخ تبعون أم خليل... وطلع دزينـة صفيحة بعلبكية على بيت أم لطفي...».

fb/mashro3pdf

أف... صوته يرن في رأسي... ودماء نجلا تنساب من الصالون إلى الدرج... وصوت سكان العمارة يتكرر..»اتصلوا بالدرك يا جماعة... في جريمة قتل هون».

تصل سيارة الدرك...

تذهب سيارة الدرك...

لم أسأل أحد عن مجرى التحقيق... لم أسأل كيف انتهى، وما هو مصير «عبدو».

أحس بشفقة على «عبدو» وبنقمة على صورة «هيفا وهبي» الكبيرة المعلقة عند محل الكاسيت المقابل للمبنى. الصورة التي تحبها نجلا، صورة «هيفا» بالأبيض وهي تضع إصبعها في فمها بحركة مغوية، نجلا كانت تقلد حركاتها وتقول:

«وحياتك يا ندى فيكي تشوفي هيفا وما تبحلقي فيها... ما في حدا ما بيحب هيفا إلا زوجي «عبدو»، بتصدقي بس يشوفني عم إتفرج على هيفا بيقللي قومي حضري العشا وبلا هالمسخرة هيدي وأكل الهوا».

لا أصدق أن نجلا ماتت... قتلت... وأنها لم تعد موجودة في هذا العالم... وأنني لن أراها من جديد.

* * *

خرجت للقاء د. فواز، أرسل لي إيميل أنه وصل إلى لبنان، وإنه سيبقى عدة أيام في بيروت ثم يذهب إلى بيته الثاني في «إهدن» حيث سيعثر لي هناك على كتابات ناهية نصار وبعض أعداد من مجلتها. التقيته في مقهى «ستار بكس» في الحمرا. بدا لي شخصاً رائعاً للغاية رغم سنوات عمره كانت روحه نشطة ومفعمة بالحياة وبعيدة تماماً عن الشيخوخة. سألني عن هند فأخبرته أنها سافرت إلى قبرص لتتم زواجها

fb/mashro3pdf

المدنـي، فرح جـداً بالخبر كما لو أننـي أخبره بأمنية خاصـة به تحققت، فيمـا بعد حكى لي أنه أحب في شـبابه فتـاة من ديانة مختلفـة عن ديانته ولـم يتزوجها لأنها لـم تكن شـجاعة،ولم تجرؤ على مواجهـة المجتمع كما فعلت هند.

حكيت له أشـياء كثيرة... بقينا معا من الساعة العاشرة صباحاً حتى الثالثة ظهراً، مشينا في شارع الحمرا، سرنا حتى شارع الجامعة الأميركية، ثم تناولنا الغذاء في مطعم صغير يقدم وجبات للطلاب.

أكاد أكون حكيت له كل ما في حياتي... عن أمي.. عن عمتي، عن محمـدو.. عن خوفي مـن الغد، من الفراغ، من عـدم معرفتي بما أتمكن من تحقيقه.

د. فواز كان رائعاً في كل شـيء، في صوته الهادئ وهو يحكي لي عن حبيبته، عـن تلاميذه في الجامعة، عن زوجته التـي أنجبت له ولدين ورحلت منذ خمسة عشـرين عاماً، عن هوايته بالسفر حول العالم، حيث الرغبة الكامنة في اكتشاف الحياة، قال لي:

«بتعرفي ندى، شـو أهم شـي بهالدنيا، الأصدقاء لمـا بيكون عندك أصدقـاء حقيقييـن بيخففـوا كتيـر حـزن بحياتك وبيسـاعدوكي لتشـوفي حالك أوضح، الأصدقـاء مرايتنا، أنا لفيت الدنيا كلها بسـبب أصدقائي، زرت أحلى بلـدان العالم وأغلاها كمان، كان بكل بلـد إلي صديق، وما بتصدقـي بمبالغ قليلة، كنت أسـتنى لما يكون في عـروض على الطيران وسـافر، بعد وفاة زوجتـي بقي حدي أصدقائي بس، سـاعدوني لأتحمل الغربـة وكمـل الحيـاة لغاية مـا كبـروا الولديـن وتخرجـوا مـن الجامعة واختـاروا طريقهن. العزلة السـلبية بتخلينا نشـوف إنه مشـاكلنا هي بؤرة العالم، بس لما بتسـافري وبتشـوفي الحياة، لما بيكون قلبـك مفتوح إنه

fb/mashro3pdf

تشـوفي حضارات تانيـة ومجتمعات مختلفة بتعرفي كيف ماشـية حياتك ولوين... فكري تسـافري مع أمـك.. ليه لا؟ فكري تروحـي زيارة ثلاثة أشـهر، فكري إنك تصيري معدة برامج وثائقية، بظن هيدا الشي اللي رح تنجحي فيه».

اتفقنـا أيضاً علـى اللقاء في اليـوم التالي، ووعدنـي أن يعطيني كل الصور والمعلومات التي سـيجدها في بيته في إهدن، كي أعد تقريراً عن حياة ناهية نصار، اقترح عليَّ د. فواز أن يكون هذا التقرير هو الذي أبادر في تقديمه للفضائية لو طلبوا مني إعداد تصور ما.

* * *

وأنـا في السـيارة قبـل وصولي إلى شـارع بيتنـا، وبعد عبور جسـر المطـار، كان هناك أغنيات للنصر، وشـبان يوزعون الحلوى لكل سـيارة تدخل إلى «الضاحية الجنوبية»، سألت السائق عن السبب، أجابني بلهجة مسـتنكرة لجهلـي «معقول مـش عارفة، شـباب الحزب كمشـوا جنديين إسـرائيليين». هززت رأسـي وأنا أتذكر أنني خرجـت صباحاً ولم أجلس إلى الكمبيوتر أو التلفزيون، فلم أسمع الأخبار.

بعد ذلك تلاحقت الأحداث بشـكل سريع... سـريع جداً... خلال ساعات قليلة فقط.

التهديد بحرب جديدة.

إنذار سكان الضاحية الجنوبية بمغادرة بيوتهم.

كل شيء كان يدور بسـرعة عبثية، ناس تركض، ناس تحمل بعض الحاجيات وترحل، غيرهم يؤجلون المغادرة بانتظار ما سيحدث.

كان عليَّ الرحيل أيضاً.

fb/mashro3pdf

اتصلت بـي هاديا قبـل أن يغـادروا بيتهـم، عرضت علـيَّ الذهاب معهم إلى بيـت أحد أقاربهم في منطقـة «البربير»، أخبرتها أنني سـأغادر غداً صباحاً إلى بيت خالي في «أبلح».

لا أعرف كيف مضت تلك الليلة. لم أكن خائفة من الأشـباح هذه المرة. اكتشفت مساء أن المبنى صار خالياً من السكان تماماً.

رأيت الناس عصراً من البرندة تحزم بعض أمتعتها وتسـرع بالفرار، لكـن لم يخطر فـي بالي أن عليَّ الإسـراع بالفرار أيضاً. لـم يكن هذا ما يشغلني لأنه كان عليَّ التفكير في المكان الذي سأذهب إليه؟

تتصل أمـي بي تقول: «وينك ندى، شـو بعدك عـم تعملي بالبيت، خدي أول سيارة وطلعي عندي على الجبل».

وعدتهـا بمغادرة البيت، رجتني أن أصعد إلـى الجبل أو إلى البقاع عنـد خالي، عادت واتصلت مرة... مرتين.. ثلاثة... وفي كل مرة يتكرّر بيننـا ذات الحوار، هي تبكـي من الخوف والقلق ومـن مفاجآت الحرب التي أعادت إلى ذاكرتها أحداث أعوام قديمة وأنا أقول لها إنني سـأغادر البيت غداً صباحاً.

وكما لو إنني أكتشف بأني أعيش في بلد عجيب، بلد كأنه جزء من دفتـر تلوين مفـرغ، وعلى الآخريـن أن يضعوا الألوان التـي يحبون. هذا البلد الصغير الذي يحتضن البحر أحد جوانبه، سـاعد تشـكله الجغرافي على ترسـيخ البقع الملونة وتكريـس اختلاف الألوان، يتنـوع داخله بين جباله العازلة، وبقاعه المنبسطة باتساع يكاد ينفصل عن سواها، الأحراش الغامضة، تجاورها الوديان، وأشـجار باسـقة ليس هناك نهاية لارتفاعها، فيما عاصمة عنيدة هي قلـب البلد ونواته، جنته وجحيمه، عاصمة جريئة لم يتغير سـكانها منذ نشوء العالم، سـكان متعددو الطوائف والانتماءات

fb/mashro3pdf

لا ينصهرون في بوتقة واحدة أبداً، ليظل هناك ما يشير إلى الفروقات بين فئة وأخرى. إنها الفروق التي يصر البشر أنفسهم على وجودها.

الساعة السادسة فجرا.. دوي انفجار عنيف. أقوم بسرعة نحو الشرفة، ليس هناك سوى دخان أسود في السماء وأصوات غربان تنعق بداية الخراب. أسرع إلى التلفزيون، صور متلاحقة لقصف «المطار» وصوت المذيع يتحدث عن تكرار الإنذار لأهالي الضاحية الجنوبية بالمغادرة.

دوي انفجار آخر أكثر عنفاً... ثم انقطاع في التيار الكهربائي.

أشعل شمعة صغيرة وضعتها بجانبي ليلاً. أقرر المغادرة.

أضع في حقيبة صغيرة بعض الثياب، أقفل جهاز كمبيوتري وأضعه في الحقيبة السوداء الخاصة به، هذه هي الأغراض التي سآخذها معي، غير ذلك سأضعه في حقيبة يدي، بطاقتي الشخصية، ثم كل ما في حوزتي من مال، أقفل أبواب البيت ونوافذه جيداً، أحمل أغراضي وأسرع بالركض على الدرج. كان معتماً جداً ندمت أنني لم أحمل الشمعة معي، كنت أتحسس خطواتي في الظلام، وأحس أن الأشباح ترافقني لكنها لا تخيفني، يا لها من مفارقة غريبة... لماذا سكتت الأشباح هذه المرة ولم تعد تأتي لإيقاظي وبث الرعب في قلبي.

أسير باتجاه الشارع، في يدي حقيبة ثيابي، وعلى كتفي كمبيوتري المحمول... الشارع فارغ تماماً من السيارات والمارة، سوى من بضعة شبان يرتدون تيشيرتات سوداء يتوزعون في الطريق... وآخرون يعبرون بسرعة على الموتسيكلات. عبرت من جانبي سيارتان أو ثلاثة بشكل سريع جداً، ترتفع منها أغنيات عن الحرب والمقاومة.

fb/mashro3pdf

صوت هاتفي الخليوي يرتفع، أقف على جانب الطريق لأتكلم أمي تصرخ عبر الهاتف بجزع «وينك ندى؟»

«علـى الطريق ماما... طلعـت من البيـت ورح آخد سـيارة وأجي لعندك... ما تخافي».

يباغتني إحساس بأنني مسؤولة عن حالة الخوف التي تنتابها. أطلب منها عدم القلق عليَّ لأني بخير وسأصل إليها بعد وقت قريب.

سـائق «فان» يندفع بشـكل صاروخي يقف فجأة يسألني عن وجهة سـيري، قلت لـه إنني أريـد الوصول إلـى المشـرفية لأذهـب بعدها إلى الجبل أو البقاع، طلبت منه أن يوصلني إلـى البقاع، طلب مبلغاً مضاعفًا ثلاث مرات عن السـعر في وقت لا حرب فيه، وافقت بسرعة وصعدت إلى المقعد الخلفي. ينطلق بسرعة جنونية، ثم يقف أمام كتل من الدمار.

الجسـر الذي كان البارحة معبراً صار اليوم حطاماً. وسـوبرماركت «شـوبرز» التي كانت تحت الجسـر تضج بالحركة والنـاس صارت كتلة متفحمة من اللون الأسود.

رائحة البارود تغلب رائحة الصباح.

لكن الدمار لا يمنع السائق من الحديث عن النصر الموعود.

أحس بالعطش الشـديد... العطش إحسـاس بشع أسـوأ من الجوع بكثير. أذكر أنني لم أتناول الطعام منذ البارحة عصراً.

نصـل إلى المشـرفية. جنـود من الجيـش اللبنانـي يقفلـون الطريق ويشيرون للسيارات بالعودة. يسأل سائق الفان عن السبب، يخبره أحدهم بأن الطريق مقطوع.

أمـدُّ يدي إلى حقيبتي، كي اتصل بأمي لأخبرها أن الطريق مقطوع،

fb/mashro3pdf

ولا يمكنني الوصول.

لا أجد الهاتف، أكرر البحث مع تقليب محتويات الحقيبة. لا شيء.

ضاع هاتفي الخليوي، يبدو أنه سقط مني سهواً. لم أعد أملك الآن طريقة للتواصل معهم.

طلبت من السائق أن يوصلني إلى بيروت.

قال: «لوين يعني ببيروت؟»

قلت: «على شارع حمد» فكرت بالذهاب إلى بيت هند، المفتاح معي وسأظل هناك.

خلال الطريق الذي بدا متجهاً نحو المجهول كان هناك سيارات تضم أهالي مهجرين من بيوتهم. وجوه الأطفال يعلوها خوف، وجوه الكبار يمتزج فيها القلق والتساؤل ومحاولات للتظاهر بالقوة.

فجأة خطر في ذهني الذهاب لرؤية عمتي، سأشتري لها السجائر وبعض الأغراض الأخرى، وأترك لها النقود في خزنة المستشفى، لأنني لا أعرف متى سأتمكن من زيارتها مرة أخرى في أجواء الحرب.

حرّك السائق الفان بسرعة، وكان يبدو عليه الانزعاج، وأنا أطلب منه تغيير وجهة سيري...

عطشي يتزايد... ما إن اقتربنا من أول الشارع حتى طلبت منه النزول. فكرت كيف سأذهب لزيارة عمتي من دون أن أشتري لها شيئاً تأكله. كان عليَّ أيضاً أن أتصل بأمي لأبلغها عن ضياع الهاتف.

توقفت عند سوبرماركت صغير، أجريت الاتصالين بسرعة عبر وضع القطع المعدنية في المكان المخصص لها، كان صاحب المحل

fb/mashro3pdf

يتحـدث مع الرجـل الآخر الـذي معه عـن الحرب أيضـاً.. قائـلاً: «الله ينصرهم للشباب... هيك بيضوها».

«شـو عم تقول يا خيي... بكره بتشوف البلد رح تخرب... معقول أنت... شو بيضوها».

يرد عليه:

«إذا ما خربت ما بتعمر... أصلاً هي البلد خربانة... شو أنت مفكر إنهـا عمرانة... روح شـوف الناس كيف مش لاقية تـاكل... أوعي تكون مغشوش باللي بتشوفه بسوليدير ومولي‌دير... هيدي المصاري كلها رايحة على كروش الأغنيا».

يرد الأول:

«إذا الناس جوعانة هلق شوي رح تموت جوع بكره بتشوف...».

تشترك امرأة خمسينية تقف في جانب الدكان قائلة:

"إيه والله بعدنا ما نسينا أيام الحرب والضرب... لهلق بعده بكل بيت في قصة مرة".

"يا أختي عم قول هيك وعم يقللي إذا ما خربت ما بتعمر... والله يخليهن الشباب".

انتبه إلى أنني صرت طرفاً في الحوار وأنا أقف أستمع إليهم، وكلا الرجليـن والمـرأة ينظر إلـيَّ موجهاً الـكلام لـي، الرجل الثانـي الرافض للحرب، يسألني بصيغة افتراضية:

"أنت يا عمو ما عشتي الحرب، مش هيك؟"

أسـتدرك أنه ينبغي عليَّ الإجابة، أهز برأسـي موافقة أنني لم أعش الحرب، فيعود إلى الكلام موجهاً حديثه إلى الرجل الأول فيقول:

fb/mashro3pdf

"شو ذنبه هالجيل خطي.. ليرجع يشوف حرب وقتل ودمار...".

تقول المرأة:

إيه شـو ذنبه يرجع يحمل سلاح وبواريد...ربيناهن بدموع العين... لوين جاي يا بنتي؟"

تسألني المرأة.

أرفع سبابتي وأشير إلى الطريق قائلة: "لهون...مشوار لهون..".

تقلب المرأة شفتها السفلى، تظن أنني لا أريد الإجابة، ثم تنصحني بالعودة إلى البيت سريعاً.

يتوقف الجميع عن الكلام حين يعلن المذياع عن خبر عاجل...

أطلب من صاحب المحل كيساً لأضع فيه مشترياتي، أعطيه المال، يأخـذه مني وعينـاه عالقتان على الشاشـة، يعطيني ما تبقى مـن المال ثم يقول لي وأنا أبتعد: "الله معك يا عمو...توصلي بالسلامة".

أبتسم بصعوبة...

في الشارع الأجواء متشابهة، أغاني المقاومة مارسيل خليفة، جوليا، ماجدة الرومـي، وغيرهم ترتفـع من المذيـاع، كلها أغاني عـن المقاومة والرفض، والموت وقوفاً. أما المحلات التي أصر أصحابها على مواجهة الحياة والعمل بشكل شبه عادي تجد فيها تجمعاً لعدد من الأشخاص ما بين زبائن وجيران.

أدخل إلى المستشفى، أشم ذات الرائحة القديمة، يعاودني إحساس التقيؤ... أحس بطيف جدتي يمسـك يدي الصغيرة وهي تصطحبني معها إلى هنا... بنت في السادسة وامرأة تجاوزت الخمسين.

صديقات عمتي المريضات يلوحن لي من الشـباك المسـور بمربع

fb/mashro3pdf

حديدي فيه فتحات صغيرة تشبه فتحات شبابيك السجون، ينادين علي كما لو أنني صديقتهن "ندى... ندى..."، ثم ترتفع أصوات مرعبة، أصوات تزلزل بصراخها المكان.

داخلي يرتجف، لا.. لا.. يداي أيضاً، قدماي عند أعلى الفخذ تميدان بي، وأحس بهما واهنتان ورقيقتان كقلم رصاص، انقباض ما يعتصر أمعائي...

أشد قبضة يدي على كيس المشتريات للحفاظ على توازني، أكتشف أنني نسيت حقيبة ثيابي في الدكان ولا يوجد معي إلا كمبيوتري أحمله على كتفي، إذن عليَّ العودة لإحضارها بعد مغادرة المستشفى، أرى عروق يدي تنفر وتتمدد إلى خارج جلدي، أصابعي منتفخة ومتعرقة، لونها قاتم وكما لو أن دمائي اختلطت بلون بترولي غامق فصار لونها غريباً. لا أعرف كيف يكون لون الدم حين يمتزج بألوان أخرى تؤثر على لونه الأصلي فتلغيه تماماً.

أصعد باتجاه الدرج، أعبر الطابق الأول، ثم الثاني.

أقف أمام الباب الكبير، الباب الذي يصيبني ما وراءه بالجزع. أكبس بسبابتي على الجرس، أضم يدي وأضرب أيضاً على الباب ضربتين، وجهي شديد الصفرة، لا أحتاج مرآة لتؤكد لي ذلك، أعرف أن الدماء كلها تتحرك بين قلبي ويدي فقط، فيما سائر أعضائي جافة تماماً.

ينفتح الباب. إنها ذات الممرضة المرعبة التي رأيتها آخر مرة، حين أتيت برفقة حسان ابن عمي. أرى وجهها شديد السواد، أعرف أنها ستقول لي لا توجد زيارات اليوم، وأن عليَّ ترك الأغراض عندها والمال في خزنة المستشفى، لذا أبادرها بأن أمدّ يدي بالكيس في تهيؤ تام لأنزل الدرج مبتعدة بسرعة، لكنها تمسكني من يدي، تشد على اليد

fb/mashro3pdf

التي تمسك الكيس وتضع يدها الأخرى على كتفي. تسحبني إلى الداخل من دون كلام. نقف أنا وهي في الصالون الواسع الذي تجلس فيه المريضات ليشاهدن التلفزيون مساء. المكان هادئ تماماً، وخالٍ سوى من بعض الأصوات التي ترتفع من الحجرات. ما هذا الهدوء المرعب، من أين انبعثت الأصوات التي كنت أسمعها وأنا في الأسفل إذن؟ ثم أين هن المريضات اللواتي كن يلوحن لي من نافذة الشباك التي تشبه نافذة السجن، أين هي عمتي أيضاً؟

تشير عليَّ الممرضة للسير ورائها في الممر الطويل، يبدو لي أن لا نهاية له.

في زيها الأبيض المخيف تسير أمامي، قدميها تبدوان شديدتي السواد عند نهاية حافة المريول. صندلها الأبيض أيضاً ذو الكعب الضخم يبدو لي بشعاً أيضاً.

تتركني وجهاً لوجه أمام باب خشبي فيه مربعات من الزجاج السميك الذي يبدو ما خلفه مجرد أشباح متحركة، على الحائط قرب الباب يافطة صغيرة مكتوب عليها "رئيسة قسم التمريض". تتجاوزني الممرضة، تفتح الباب وتدخل بسرعة، تتركني خارجاً، تضم أصابعها الخمسة في شكل هرم فتبدو لي رؤوس أصابعها مثل مخالب حيوان مفترس وهي تحركها لتشير لي بالانتظار.

دقيقة من الوقت مرّت ببطء كنت أحس بأجزاء الثانية وهي تعبر حدود زمني الثقيل.

تخرج الممرضة، تعبر من أمامي وهي تمنحني ابتسامة تعاطف صفراء ثم تبتعد عبر الممر الطويل.

fb/mashro3pdf

وقفت وجهاً لوجه أمام رئيسة الممرضات التي تجلس على كرسيها الواسع، كانت امرأة سمينة وقصيرة، مربعة الجسد، وجهها كبير أيضاً، عظمتا خدها بارزتان رغم كتل اللحم التي تغطيهما، عيناها تضيقان تحت ثقل جفنيها السميكين، وقفت فبان لي كتفها وصدرها كتلة واحدة. ملامحها كلها جامدة من الصعب التنبه إلى ما تود قوله.

ثم...

ماذا كانت تقول...؟

لا أذكر تماماً.

عبارات... عبارات.. لا هوية لها.

عبارات تفيد حقيقة واحدة... "ماتت"... عمتي ماتت.

كررتُ الجملة... وأيضاً كررتُ عبارات لا تجدي، الأسئلة التي ترافق حدث الموت، كيف ومتى؟ أين؟ لم؟

"اتصلنا بعمك، وخبرناه علشان تشوفوا موضوع الدفن كيف بده يتم، نحنا مفكرين إنك عارفة، وجاية تردي علينا خبر، هي توفت اليوم عند الفجر... البقاء لله.. ربنا ريحها وريحكن.. ربنا خفف عنكن وعنها".

لم تكن تتحدث بتعاطف معي، كانت كمن ينقل لي خبراً مريحاً. كانت تراني لحظتها مثل الأبناء الذين يضعون أهاليهم في دار المسنين وحين يعرفون بموتهم، يعتبرون أن الموت جاء رحمة لكليهما، فيفرحون فرحاً سرياً يخجلون من إظهاره.

يدي متيبسة على الكيس المليء بالمشتريات. تتراخى يدي عنه، يسقط على الأرض، أسمع صوت ارتطام عنيف، يتزامن مع دوي انفجار

fb/mashro3pdf

بعيـد. يبدو علـى الممرضـة التململ وأنـا أحملـق بها وبالمكتـب الذي تجلس عليه.

عمتي ماتت إذن... عليَّ مغادرة هذا المكان بسرعة... عليَّ مغادرته إلى الأبد.

أقف... أتحرك خطوتين نحو الباب. برودة عنيفة، ثلج يملأ أوردتي وأعضائي كلها.

صوت الممرضـة يأتيني مـن الخلف قائلـة "لوين...لازم تسـتلمي غراض عمتك، وتضلي هون ليجي عمك ويتمم إجراءات الدفن".

صوت القذائـف تتوالى خارج المستشـفى، رائحة البارود تتسـرب عبر الشباك المغلق.

ينفتـح باب الغرفة بسـرعة، أجـد الممرضـة الأولى أمامـي، التفت برأسـي إلى الوراء نحو رئيسة الممرضات، تشير إليها باصطحابي، أمشي خلفهـا، خطواتـي متكسـرة، قدمـاي تتضخمـان، الآن لا يوجـد فـي كل جسدي سوى قدمين تسيران في ممر المستشفى الطويل.

نصـل إلـى الصالـون الـذي تجلـس فيـه المريضـات، تشـير علـي الممرضـة بالجلوس، أجلس فـي المقعد الذي رأيت عمتـي تجلس فيه. تنظر إلي الممرضة فلا أرى سـوى عينيها اللتين تشـبهان عيون مصاصي الدمـاء، تندفع من فمها عبارة مفادها أن علـي الانتظار ريثما تعود. تبتعد هي، تبدأ المريضات بالصحو، يدخلن إلى الصالون الواسـع، أحس بهلع كبير، انكمش على ذاتي، أفكر بالهرب عبر الباب الذي دخلت منه، أحرك قبضته، الباب مقفل، قهقهة كبيرة ترتفع من مكان ما، أعود لأجلس على المقعد الشـاغر الذي تركته، مكان عمتي. انتظر قدوم الممرضة... استند

fb/mashro3pdf

إلـى ذراع المقعـد، أشـد كلتا يـدي على معدتـي، اعتصار حـاد يمزقني، ورغبة عاليـة في الصراخ... صـراخ حاد جداً مرتفع ينطلـق مني، صراخ يتحول إلى زعيق، أقع على الأرض.

آخـر ما أذكره صـوت قذائـف يتتالى انفجارهـا... رائحة بـارود... دخـان أرى أخيلته ترتفع مـن مكان مـا. روح عمتي تتحرك فـي الغرفة، أشـباحها حولي تماماً، بينها شبح كبير جداً، هائل الحجم، رمادي اللون، يقتـرب مني مقهقهـا، أسـمع ذات الصوت الـذي كان يصـدر من عمتي لحظة مرضها، دوار عنيف في رأسي...

صـوت القذائف يتتالـى... الممرضـة البنية اللون تعـود إلى الغرفة معها ممرضة أخرى، يمسـكانني من كتفي، يدفعانني للوقوف. للسير إلى الداخل، العودة إلى الممر،إلى ظلاله الرمادية.

أسير معهما ببطء.

أصوات القذائف تتسارع أكثر.

قلبـي ينبض وينبسـط في نبض سـريع، جسـدي يصيـر مجرد قلب الآن، ووجـه فيه حدقتان متسـعتان بهلع، قدماي تتضـاءلان، تميدان بي، غصة عند حلقي، قيء يندفع من معدتي الفارغة، إعصار يدور في أمعائي و... و... و... والحرب...

إلى متى ستستمر الحرب؟

وأنا... أنا... ماذا أفعل هنا؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf